دَمْعَةٌ وَابْتِسَامَةٌ

تاليف

جبران خليل جبران

مطبعة الاتلنتيك · نيويورك سنة ١٩١٤

كتاب

دَمْعَةٌ وَابْتِسَامَةٌ

تاليف

جبران خليل جبران

مطبعة الاتلنتيك · نيويورك سنة ١٩١٤

مؤلفات

جبران خليل جبران



﴿ الجزء الاول ﴾

دمعة وابتسامة

مجموعة افكار واميال وعواطف

الى

M. E. H.

اقدم هذا الكتاب ، وهو اول نسمة من عاصفة حياتي ،
الى الروح النبيلة التي تحب النسمات وتسير مع العواصف

جبران

دمعة وابتسامة

مقدمة

قد انتقل جبران خليل جبران في الاعوام العشرة الاخيرة من ربيع الحياة الى صيفها ، فنمت امياله ونضجت افكاره ، وتدرجت روحه من عالم الخيال الشعري الى عالم اسمى واوسع يتعانق فيهِ الخيال المطلق والحقيقة المجردة ، وتلتقي في جنباتهِ اشباح العواطف الدقيقة بجبابرة المبادئ الاساسية الصحيحة .

جبران اليوم ليس بجبران الامس ، فالشاب الحساس الذي كتب « دمعة وابتسامة » بقلم محبرّ بالدمع قد تحول الى رجل قويّ يكتب برؤوس الحراب المغموسة بالدماء . والفرق بين مقالة « جمال الموت » وحكاية « حفار القبور » هو الفرق بين جبران الامس وجبران اليوم ، فالنفس اللطيفة التي كانت ترتعش لهبوب نسيمات السحر قد

تشددت بالعزم فلم تعد تهتز الا للعواصف فالعواصف هي من حاضر جبران بمقام النسيم من ماضيه

ولكن لو تمعنا ملياً بجموع كتابات جبران وتآليفه ، وعلاقتها بالنهضة الادبية الحديثة ، لوجدنا ان « لدمعة وابتسامة » مقاماً خاصاً بها لانها كانت اول نغمة من نوعها في العالم العربي ، لانها خالفت بما فيها من التراكيب ودقة البيان كل ما جاءَ قبلها من الكتابات ، لانها أَتت كتوطئة لحركة عربية جديدة يشعر بها ويتأَثر لها الطالب في مدرستهِ والمتأَدب في مكتبتهِ والصحافي في ادارتهِ ٠

عندما ظهرت « دمعة وابتسامة » كان الكتاب والشعراء في مصر وسوريا والمهجر يملأُون الصحف والمجلات بمقالات ورسائل وقصائد عقيمة بليدة خالية من الشعور بعيدة عن القلب ، وكان اكثر الناس يحسبون كل من وزن الكلام شاعراً وكل من رتب الفقرات كاتباً ٠

ولكن لما ابتدأَ جبران بنشر « دمعة وابتسامة » غيَّر الناس افكارهم وعلموا للمرة الاولى ان الشاعر الحقيقي هو الذي يضرب باصابعه السحرية عَلَى اوتار قلوبهم ويعيد عَلَى مسامعهم في اليقظة ما تسمعه ارواحهم في المنام . ومن ذلك الحين ابتدأ فتيان الكتاب والشعراء بتقليد « دمعة وابتسامة » والنسج عَلَى منوالها فلم يمر عامان او ثلاثة عَلَى ظهورها حتى كان لجبران تلاميذ واتباع منتشرون في كل مكان من العالم العربي

***

عندما طلبنا الى جبران جمع « دمعة وابتسامة » ونشرها في كتاب اجابنا ببيت من احد موشحاته قائلاً :

« ذاك عهدٌ من حياتي قد مضى

بين تشبيبٍ وشكوى ونواحْ »

فقلنا له « ذاك عهدٌ من حياتك قد مضى، ولكنهُ لم

يزل حاضراً في حياة محبيك ومريديك »

فاجابنا « ان الشاب الذي كتب « دمعة وابتسامة » قد مات ودفن في وادي الاحلام فلماذا تريدون نبش قبره؟»

فقلنا له « ان ذلك الشاب قد ترنم باغنية علوية قبل ان يموت وعلينا ان نحفظ تلك الاغنية كيلا تتلاعب بها ايدي الضياع »

فاجابنا « افعلوا ما شئتم، ولكن لا تنسوا ان روح ذلك الشاب قد تقمصت في جسد رجل يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال ويميل الى الهدم ميله الى البناء فهو صديق الناس وعدوهم في وقت واحد »

فقلنا له « سوف لا ننسى وان حاولنا التناسي ففي « حفار القبور » ما ينبهنا ويذكرنا »

نسيب عريضه

نيويورك في ٢٤ نيسان سنة ١٩١٤

فهرست

صفحة

فهرست

صفحة

فهرست

صفحة

فهرست

فهرست



دمعة وابتسامة

توطئة

***

انا لا ابدل احزان قلبي بافراح الناس ولا ارضى ان تنقلب الدموع التي تستدرها الكآبة من جوارحي وتصير ضحكاً . اتمنى ان تبقى حياتي دمعة وابتسامة : دمعة تطهر قلبي وتفهمني اسرار الحياة وغوامضها ، وابتسامة تدنيني من ابناء بجدتي وتكون رمز تمجيدي الالهة ـ دمعة اشارك بها منسحقي القلب، وابتسامة تكون عنوان فرحي بوجودي.

اريد ان اموت شوقاً ولا احيا مللاً . اريد ان تكون في اعماق نفسي مجاعة للحب والجمال لاني نظرت

فرأيت المستكفئين اشقى الناس واقربهم من المادة واصغيت فسمعت تنهدات المشتاق المتمني اعذب من رنات المثاني والمثالث ٠

يأتي المساء فتضم الزهرة اوراقها وتنام معانقة شوقها وعندما يأتي الصباح تفتح شفتيها لاقتبال قبلة الشمس، فحياة الازهار شوق ووصال — دمعة وابتسامة ٠

تتبخر مياه البحر وتتصاعد ثم تجتمع وتصير غيمة وتسير فوق الطلول والاودية حتى اذا ما لاقت نسيمات لطيفة تساقطت باكية نحو الحقول وانضمت الى الجداول ورجعت الى البحر موطنها. حياة الغيوم فراق ولقاء — دمعة وابتسامة ٠

كذا النفس تنفصل عن الروح العام وتسير في عالم المادة وتمرّ كغيمة فوق جبال الاحزان وسهول الافراح فتلتقي بنسيمات الموت فترجع الى حيث كانت ٠ الى بحر المحبة والجمال ٠ الى الله ٠٠٠

حياة الحب

***

ـ الربيع ـ

هلمي يا محبوبتي نمشِ بين الطلول ، فقد ذابت الثلوج ، وهبت الحياة من مراقدها وتمايلت في الاودية والمنحدرات . سيري معي لنتبع اثار اقدام الربيع في الحقل البعيد . تعالي لنصعد الى اعالي الربى ونتأمل في تموجات اخضرار السهول حولها .

ها قد نشر فجر الربيع ثوباً طواه ليل الشتاء فاكتست بهِ اشجار الخوخ والتفاح فظهرت كالعرائس في ليلة القدر ، واستيقظت الكروم وتعانقت قضبانها كمعاشر العشاق ، وجرت الجداول راقصة بين الصخور مرددة اغنية الفرح ،

وانبثقت الازهار من قلب الطبيعة انبثاق الزبد من البحر ·

تعالي لنشرب بقايا دموع المطر من كؤوس النرجس ونملأ نفسينا باغاني العصافير المسرورة ونغتنم استنشاق عطر النسيمات ·

لنجلس بقرب تلك الصخرة حيث يختبئ البنفسج ونتبادل قبلات المحبة ·

ـ الصيف ـ

هيا بنا الى الحقل ياحبيبتي فقدجاءت ايام الحصاد وبلغ الزرع مبلغه وانضجتهُ حرارة محبة الشمس للطبيعة · تعالي قبل ان تسبقنا الطيور فتستغل اتعابنا ، وجماعة النمل فتأخذ ارضنا · هلمي نجنِ ثمار الارض مثلما جنت النفس حبوب السعادة من بذور الوفاء التي زرعتها المحبة في اعماق قلبينا ، ونملأ المخازن من نتاج العناصر كما ملأت الحياة اهراء عواطفنا ·

هلمي يا رفيقتي نفترش الاعشاب ونلتحف السماء ونوسد رأسينا بضغث من القش الناعم فنرتاح من عمل النهار ونسمع مسامرة غدير الوادي ·

ـ الخريف ـ

لنذهب الى الكرمة يا محبوبتي ونعصر العنب ونوعيه في الاجران مثلما توعي النفس حكمة الاجيال ونجمع الاثمار اليابسة ونستقطر الازهار ونستعيض عن العين بالاثر ·

لنرجع نحو المساكن فقد اصفرّت اوراق الاشجار ونثرها الهواء كانهُ يريد ان يكفن بها ازهاراً قضت لوعةً عندما ودعها الصيف · تعالي فقد رحلت الطيور نحو الساحل وحملت معها انس الرياض وخلفت الوحشة للياسمين والسيسبان فبكى باقي الدموع عَلَى اديم التراب ·

لنرجع ! فالجداول قد وقفت عن مسيرها ، والعيون نشفت دموع فرحها ، والطلول خلعت باهي اثوابها · تعالي

يامحبوبتي ، فالطبيعة قد راودهـا النعاس فامست تودع اليقظة باغنية نهاوندية موُثرة ·

ـ الشتاء ـ

اقتربي ياشريكة حياتي ، اقتربي مني ولا تدعي انفاس الثلوج تفصل جسمينا · اجلسي بجانبي امام هـذا الموقد ، فالنار فاكهة الشتاء الشهية . حدثيني بما آتي الاجيال ، فاذاني قد تعبت من تاوه الارياح وندب العناصر . اوصدي الابواب والنوافذ ، فمرأى وجه الجو الغضوب يحزن نفسي والنظر الى المدينة الجالسة كالثكلى تحت اطباق الثلوج يدمي قلبي ··· اسقي السراج زيتاً ، يارفيقة عمري ، فقد اوشك ان ينطفئ ، وضعيه بالقرب منك لارى ما كتبتهُ الليالي علَى وجهك ··· تي بجرة الخمر لنشرب ونذكر ايام العصر ·

اقتربي ! — اقتربي مني ياحبيبة نفسي فقد خمدت

النار وكاد الرماد يخفيها ··· ضميني فقد انطفأ السراج
وتغلبت عليهِ الظلمة··· ها قد اثقلت اعيننا خمرة السنين··
ارمقيني بعين كحلها النعاس ··· عانقيني قبل ان يعانقنا
الكرى ··· قبليني فالثلج قد تغلب عَلَى كل شيء الا
قبلتك ···· آه يا حبيبتي ما اعمق بحر النوم . آه ما ابعد
الصباح ···· في هذا العالم



٨

حكاية

***

عَلَى ضفة ذلك النهر ، في ظل اشجار الجوز والصفصاف جلس ابن زرَّاع يتامل في المياه الجارية بسكينة وهدوء . فتى ربي بين الحقول حيث يتكلم كل شيءٍ عن الحب . حيث الاغصان تتعانق ، والازهار تتمايل ، والطيور تتشبب . حيث الطبيعة باسرها تكرز بالروح . ابن عشرين رأى بالامس عَلَى الينبوع صبية جالسة بين الصبايا فاحبها ثم علم انها ابنة الامير فلام قلبه وشكى نفسه الى نفسهِ ، لكن الملامة لا تميل بالقلب عن الحب ، والعذل لا يصرف النفس عن الحقيقة ، والانسان بين قلبه ونفسه كغصن لين في مهب ريح الجنوب وريح الشمال .

نظر الفتى فرأى زهرة البنفسج قد نبتت بقرب زهرة الاقحوان ثم سمع المزار يناجي الشحرور فبكى لوحدته وانفراده. ثم مرت ساعات حبه امام عينيهِ مرور الاشباح فقال وعواطفه تسيل مع كلماته ودموعه :

— « هوذا الحب يستهزئ بي . ها قد جعلني سخرية وقادني الى حيث الامال تعد عيوباً والاماني — مذلة ·

الحب الذي عبدته قد رفع قلبي الى قصر الامير وخفض منزلتي الى كوخ الزارع وسار بنفسي الى جمال حورية تحيط بها الرجال ويحميها الشرف الرفيع ··· انا طائع ايها الحب فماذا تريد ؟ قد اتبعتك عَلَى سبل نارية فلذعني اللهيب . قد فتحت عينيَّ فلم ارَ غير الظلمة ، واطلقت لساني فلم اتكلم بغير الاسى . قد عانقني الشوق ايها الحب بمجاعة روحية لن تزول بغير قبل الحبيب . انا ضعيف ايها الحب فلمَ تخاصمني وانت القوي ؟ لماذا تظلمني وانت العادل

وانا البريء ؟ لماذا تذلني ولم يكن غيرك ناصري ؟ لماذا تتخلى عني وانت موجدي؟ ان جرى دمي بغير مشيئتك فاهرقه ، وإن تحركت قدماي عَلَى غير طرقك فشلها ـ افعل مشيئتك بهذا الجسد وخلِّ نفسي تفرح بهذه الحقول المستأمنة بظل جناحيك . . . الجداول تسير الى حبيبها البحر ، والازهار تبتسم لعشيقها النور ، والغيوم تهبط نحو مريدها الوادي، وانا وبي ما لا تعرفه الجداول ولا تسمع بهِ الازهار ولا تدركه الغيوم قد رأيتني وحيداً في محبتي منفرداً في غرامي بعيداً عن التي لا تريدني جندياً في كتائب ابيها ولا ترضاني خادماً في قصرها . »

وسكت الفتى هنيهة كأنه يريد ان يتعلم الكلام من خرير النهر وحفيف اوراق الغصون ثم عاد فقال :

— « وانت يامن اخاف من اسمها ان ادعوها باسمها ، ايتها المحجوبة عني بستائر العظمة وجدران الجلال ، ايتها

الحورية التي لا اطمع بلقائها الاّ في الابدية حيث المساواة ، يامن تطيعها الصوارم وتنحني امامها الرقاب وتنفتح لها الخزائن والمساجد ! قد ملكت قلباً قدسه الحب واستعبدت نفساً شرّفها الله وخلبت عقلاً كان بالامس حراً بحرية هذه الحقول فصار اليوم اسيراً بقيود هذا الغرام . رأيتك ايتها الجميلة فعرفت سبب مجيئي الى هذا العالم ، ولما عرفت رفعة منزلتك ونظرت الى حقارتي علمت ان للالهة اسراراً لا يعرفها الانسان وسبلاً تذهب بالارواح الى حيث المحبة تقضي بغير الشرائع البشرية . ايقنت لما نظرت الى عينيك ان هذه الحياة فردوس بابه القلب البشري ، ولما رأيت شرفك وذلي يتصارعان صراع مارد ورئبال علمت ان هذه الارض لم تعد وطناً لي . ظننت لما وجدتك جالسة بين نسائك ، كالوردة بين الرياحين ، ان عروس احلامي قد تجسدت وصارت بشراً مثلي ، ولما تخبرت مجد ابيك وجدت

ان دون اجتناء الورد اشواكاً تدمي الاصابع ،وان ما تجمعه الاحلام تفرقه اليقظة . . . »

وقام اذ ذاك ومشى نحو الينبوع منخفض الجناح ، كسير القلب ، مجسماً الاسى والقنوط بهذه الكلمات :

— « تعال ياموت وانقذني، فالارض التي تخنق اشواكها ازهارها لا تصلح للسكن. هلم وخلصني من ايام تخلع الحب عن كرسي مجده وتقيم الشرف العالمي مكانه. خلصني ياموت ! فالابدية اجدر بلقاء المحبين من هذا العالم. هناك ياموت انتظر حبيبتي وهناك اجتمع بها . »

بلغ الينبوع وقد جاء المساء واخذت الشمس تلم وشاحها الذهبي عن الحقل فجلس يذرف الدموع عَلَى حضيض وطئته اقدام ابنة الامير وقد حنى رأسه عَلَى صدره كانه يمنع قلبه عن الخروج .

في تلك الدقيقة ظهرت من وراء اشجار الصفصاف

صبية تجر اذيالها عَلَى الاعشاب ووقفت بجانب الفتى ووضعت يدها الحريرية عَلَى رأسه فنظر اليها نظرة نائم ايقظه شعاع الشمس . فرأَى ابنة الامير واقفة حذاءه فجثا عَلَى ركبتيهِ مثلما فعل موسى عندما رأَى العليقة مشتعلة امامه ولما اراد الكلام ارتج عليهِ فنابت عيناه الطافحتان بالدمع عن لسانه.

ثم عانقته الصبية وقبلت شفتيهِ ، وقبلت عينيهِ راشفة المدامع السخينة وقالت بصوت الطف من نغمة الناي :

— «قد رأَيتك ياحبيبي في احلامي ونظرت وجهك في وحدتي وانقطاعي فانت رفيق نفسي الذي فقدته ونصفي الجميل الذي انفصلت عنهُ عندما حكم عليَّ بالمجيء الى هذا العالم . قد جئت سراً ياحبيبي لالتقي بك وها انت الآن بين ذراعيَّ ، فلا تجزع ! قد تركت مجد والدي لاتبعك الى اقاصي الارض واشرب معك كأس الحياة والموت . قم ياحبيبي فنذهب الى البرية البعيدة عن الانسان »

ومشى الحبيبان بين الاشجار تخفيهما ستائر الليل ولا يخيفهما بطش الامير ولا اشباح الظلمة .

هناك في اطراف البلاد عثر روّاد الامير علَى هيكلين بشريين في عنق احدهما قلادة ذهبية وبقربهما حجر كتبت عليه هذه الكلمات :

« قد جمعنا الحب فمن يفرقنا ، واخذنا الموت فمن يرجعنا ؟ »



في مدينة الاموات

***

تملصت بالامس من غوغاء المدينة وخرجت امشي في الحقول الساكنة حتى بلغت اكمة عالية البستها الطبيعة اجمل حلاها · فوقفت وقد بانت المدينة بكل ما فيها من البنايات الشاهقة والقصور الفخمة تحت غيمة كثيفة من دخان المعامل ·

جلست اتامل عن بعد في اعمال الانسان فوجدت اكثرها عناء ، فحاولت في قلبي الا افتكر بما صنعه ابن آدم وحولت عينيّ نحو الحقل كرسيّ مجد الله فرأيت في وسطه مقبرة ظهرت فيها الاجداث الرخامية المحاطة باشجار السرو هناك بين مدينة الأحياء ومدينة الاموات جلست

أفكر — أفكر في كيفية العراك المستمر والحركة الدائمة في هذه وفي السكينة السائدة والهدو المستقر في تلك . من الجهة الواحدة آمال وقنوط، ومحبة وبغضة ، وغنى وفقر ، واعتقاد وجحود، ومن الاخرى تراب في تراب تقلب الطبيعة بطنه ظاهراً وتبدع منه نباتاً ثم حيواناً وكل ذلك يتم في سكينة الليل .

بينا انا مستسلم لعوامل هذه التأملات استلفت ناظري جمع غفير يسير الهوينا تتقدمه الموسيقى وتملأ الجو الحاناً محزنة . موكب جمع بين الفخامة والعظمة وآلف بين اشكال الناس . جنازة غني قوي . رفات ميت تتبعها الاحياء وهم يبكون ويولولون ويملأون الهواء بالصراخ والعويل .

بلغوا الجبانة فاجتمع الكهان يصلون ويبخرون وانفرد الموسيقيون ينفخون الابواق وبعد قليل انبرى الخطباء فأبنوا الراحل بمنتقيات الكلام ثم الشعراء فرثوه بمنتخبات المعاني

وكل ذلك كان يتم بتطويل ممل وبعد قليل انقشع الجمع عن جدث تسابق في صنعهِ الحفارون والمهندسون وحوله اكاليل الازهار المنمقة بايدي المتفننين ·

رجع الموكب نحو المدينة وانا انظر من بعيد وافتكر ومالت الشمس نحو الغروب واستطالت خيالات الصخور والاشجار واخذت الطبيعة تخلع اثواب النور ·

في تلك الدقيقة نظرت فرأيت رجلين يقلان تابوتاً خشبياً ووراءهما امرأة ترتدي اطماراً بالية وهي حاملة عَلَى منكبيها طفلاً رضيعاً وبجانبها كلب ينظر اليها تارةً والى التابوت اخرى — جنازة فقير حقير وراءها زوجة تذرف دموع الاسى وطفل يبكي لبكاء امه وكلب امين يسير وفي مسيره حزن وكآبة·

وصل هولاء الى المقبرة واودعوا التابوت حفرة في زاوية بعيدة عن الاجداث الرخامية ثم رجعوا بسكينة

مؤثرة والكلب يتلفت نحو محط رحال رفيقه حتى اختفوا عن بصري وراء الاشجار

فالتفتُّ اذ ذاك نحو مدينة الاحياء وقلت في نفسي :

— تلك للاغنياء الاقوياء . ثم نحو مدينة الاموات وقلت :

— هذه للاغنياء الاقوياء . فاين موطن الفقير الضعيف يا رب ؟

قلت هذا ونظرت نحو الغيوم المتلبدة المتلونة اطرافها بذهب من اشعة الشمس الجميلة . وسمعت صوتاً من داخلي يقول ... هناك .



موت الشاعر حياته

***

خيم الليل بجنحه فوق المدينة والبسها الثلج ثوباً وهزم البرد ابن آدم من الاسواق فاختبأ في اوكاره · وقامت الارياح تتأوه بين المساكن كمؤبن وقف بين القبور الرخامية يرثي فريسة الموت.

وكان في اطراف الاحياء بيت حقير تداعت اركانه واثقلته الثلوج حتى اوشك ان يسقط وفي احدى زوايا ذلك البيت فراش بالٍ عليهِ محتضر ينظر الى سراج ضعيف يغالب الظلمة فتغلبهُ · فتى في ربيع العمر قد علم بقرب اجل انعتاقه من قيود الحياة فصار ينتظر المنية وعلى وجههِ المصفرّ نور الامل وعلى شفتيهِ ابتسامة محزنة. شاعرٌ جاء

ليفرح قلب الانسان باقواله الجميلة يموت جوعاً في مدينة الاحياء الاغنياء. نفس شريفة هبطت مع نعم الآلهة لتجعل الحياة عذبة تودّع دنيانا قبل ان تبتسم لها الانسانية. منازعٌ يلفظ انفاسه الاخيرة وليس بقربه سوى سراج كان رفيق وحدته واوراق عليها خيالات روحه اللطيفة.

جمع ذلك الفتى المنازع بقايا قوة قاربت الفناء ورفع يديه نحو العلاء وحرّك اجفانه الذابلة كانهُ يريد ان يخرق بنظراته الاخيرة سقف ذلك الكوخ البالي ليرى النجوم من وراء الغيوم ثم قال:

«تعالي ايتها المنية الجميلة فقد اشتاقتك نفسي. اقتربي وحلي قيود المادة فقد تعبت من جرّها. تعالي اليّ يا ايتها المنية الحلوة وانقذيني من بين البشر الذين يحسبونني غريباً عنهم لاني اترجم ما اسمعهُ من الملائكة الى لغة البشر اسرعي نحوي فقد تخلى عني الانسان وطرحني في زوايا

النسيان لاني لم اكن طامعاً بالمال نظيره ولا باستخدام من هو اضعف مني · تعالي اليّ ايتها المنية العذبة وخذيني فاولاد بجدتي لا يحتاجونني · ضميني الى صدرك المملوء محبة· قبلي شفتي التي لم تذق طعم قبلة الوالدة ولا لمست وجنة الاخت ولا لثمت ثغر المحبوبة . امرعي وعانقيني يا حبيبتي المنية ·

إنتصبَ اذ ذاك بجانب فراش المنازع طيف امرأة ذات جمال غير بشري ترتدي ثوباً ناصعاً كالثلج وتحمل بيدها اكليل زنابق من نبت الحقول العلوية· ثم دنت منهُ وعانقتهُ واغمضت عينيه كي يراها بعين نفسه . وقبلت شفتيه قبلة محبة ـ قبلةً تركت عَلَى شفتيه ابتسامة اكتفاء ·

في تلك الدقيقة اصبح ذلك البيت خالياً الا من التراب وبعض اوراق منثورة في زوايا الظلمة·

مرّت الاجيال وسكان تلك المدينة غرقى في سبات الجحود والاهمال ولما استفاقوا ورأت عيونهم بجر المعرفة

اقاموا لذلك الشاعر تمثالاً عظيماً في وسط الساحة العمومية وعيدوا له في كل عام عيداً ٠٠٠ اه ما اجهل الانسان !



بنات البحر

***

في اعماق البحر الذي يحيط بالجزائر القريبة من مطلع الشمس ـ هنالك في الاعماق حيث الدرُّ الكثير جثة فتى هامدة بقربها بنات البحر ذوات الشعور الذهبية قد جلسن بين نبات المرجان ينظرن اليها بعيونهن الزرقاء الجميلة ويتحدثن باصوات موسيقية . حديث سمعته اللجة فحملته الامواج الى الشواطئ فجاء بهِ النسيم الى نفسي .

قالت واحدة :— « هذا بشريٌّ هبط بالامس اذ كان البحر حانقاً »

فقالت الثانية : « لم يكن البحر حانقاً ولكن الانسان — وهو الذي يدعي بانه من سلالة الالهة — كان في حرب حامية

أُهرقت فيها الدماء حتى صار لون الماء قرمزياً وهذا البشري هو قتيل الحرب ٠»

فقالت الثالثة :— «لا ادري ما هي الحرب ولكني اعلم ان الانسان بعد ان تغلب عَلَى اليابسة طمع بالسيادة عَلَى البحر فابتدع الآلات الغريبة ومخر العباب فدرى نبتون اله البحار وغضب من هذا التعدي فلم يرَ الانسان بدًّا اذ ذاك من ارضاء مليكنا بالذبائح والهدايا ٠ فالاشلاء التي رأَيناها بالامس هابطة هي آخر تقدمة من الانسان الى نبتون العظيم»

قالت الرابعة :— «ما اعظم نبتون ولكن ما اقسى قلبه ٠ لو كنت انا سلطانة البحار لما رضيت بالذبائح الدموية ٠ تعالين لنرى جثة هذا الشاب فربما افادتنا شيئاً عن طائفة البشر»٠

اقتربت بنات البحر من جثمان الشاب وبحثنَ في جيوب اثوابه فعثرنَ عَلَى رسالة في الثوب الملاصق قلبه

فاخذت الرسالة واحدة منهنَّ وقرأت :

« ياحبيبي ! — ها قد انتصف الليل وانا ساهر وليس لي مسلٍّ غير دموعي ولا معزٍّ سوى املي برجوعك اليَّ من بين مخالب الحرب ولا اقدر بان افتكر الا بما قلتهُ لي عند الوداع بان عند كل انسان امانة من الدمع لا بدَّ من ردها يوماً ٠٠٠ لا ادري ياحبيبي ماذا اكتب بل اترك نفسي تسيل على الورق . نفسٌ يعذبها الشقاء ويعزيها الحب الذي يجعل الالم لذّة والاحزان مسرَّة ٠٠ لما وحد الحب قلبينا وصرنا نتوقع ضمّ جسمين تجول فيهما روح واحدة نادتك الحرب فاتبعتها مدفوعاً بعوامل الواجب والوطنية . ما هذا الواجب الذي يفرق المحبين ويرمل النساء وييتم الاطفال ؟ ما هذه الوطنية التي من اجل اسباب صغيرة تدعو الحرب لتخريب البلاد ؟ ما هذا الواجب المحتوم عَلَى القروي المسكين والذي لا يحفل بهِ القوي وابن الشرف

الموروث ؟ اذا كان الواجب ينفي السلم من بين الامم ، والوطنية تزعج سكينة حياة الانسان ، فسلام عَلَى الواجب والوطنية ..... لا لا يا حبيبي ، لاتحفل بكلامي بل كن شجاعاً ومحباً لوطنك ولا تسمع كلام ابنة اعماها الحب واضاع بصيرتها الفراق ...... اذا كان الحب لا يرجعك اليَّ في هذه الحياة فالحب يضمني اليك في الحياة الاتية »

وضعت بنات البحر تلك الرسالة تحت اثواب الشاب وسبحن بسكينة محزنة ولما بعدنَ قالت واحدة منهنَّ : —

« ان قلب الانسان اقسى من قلب نبتون »



النفس

***

... وفصل الله الالهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً

واعطاها رقة نسيمات السحر وعطر ازاهر الحقــل

ولطف نور القمر

ووهبها كاس سرور وقال:— لن تشربي منها الا اذا

نسيتِ الماضي ، واهملت الاتي ، وكاس حزن وقال : —

تشربين منها فتدركين كنه فرح الحياة

وبث فيها محبة تفارقها مع اول تنهدة استكفاء

وحلاوة تخرج منها مع اول كلمة ترفع .

واسقط عليها علماً من السماء ليرشدها الى سبل الحق

ووضع في اعماقها بصيرة ترى ما لا يرى

وابتدع فيها عاطفة تسيل مع الخيـالات وتسير مع الاشباح

والبسها ثوب شوق حاكتهُ الملائكة من تموجات قوس القزح

ثم وضع فيها ظلمة الحيرة وهي خيال النور

واخذ الاله ناراً من مصهر الغضب ، وريحاً تهب من صحراء الجهل،ورملاً من عَلَى شاطئ بحر الانانية، وترابًا من تحت اقدام الدهور وجبل الانسان

واعطاه قوة عمياء تثور عند الجنون وتخمد امام الشهوات

ثم وضع فيهِ الحياة وهي خيال الموت

وابتسم اله الالهةوبكى وشعر بمحبة لا حدّ لها ولا مدى وجمع بين الانسان ونفسه .

ابتسامة ودمعة

***

لمت الشمس اذيالها عن تلك الحدائق الناضرة وطلع القمر من وراء الافق وسكب عليها نوراً لطيفاً وانا جالس هنالك تحت الاشجار اتأمل في انقلاب الجوّ من حالة الى حالة وانظر من خلال الاغصان الى النجوم المنثورة كالدراهم عَلَى بساط ازرق واسمع من بعيد خرير جداول الوادي

ولما استأمنت الطيور بين القضبان المورقة واغمضت الازهار عيونها وسادت السكينة سمعت وقع اقدام خفيفة عَلَى الاعشاب فحولت نظري واذا بفتى وفتاة يقتربان مني. ثم جاسا تحت شجرة غضة وانا اراهما ولا ارى.

وبعيد ان تلفت الفتى الى كل ناحية سمعتهُ يقول — :

« اجلسي بجانبي ياحبيبتي واسمعيني · ابتسمي لان ابتسامتك

هي رمز مستقبلنا وافرحي لان الايام قد فرحت من اجلنا·
حدثتني نفسي بالشك الذي يخامر قلبك والشك في الحب
اثم ياحبيبتي · عن قريب تصيرين سيدة هذه الاملاك
الواسعة التي ينيرها ذلك القمر الفضي، وربة هذا القصر
المضاهي قصور الملوك، تجرك خيولي المطهمة في المتنزهات
وتذهب بك مركباتي الجميلة الى المراقص والملاهي · ابتسمي
ياحبيبتي كما يبتسم الذهب في خزائني· وارمقيني كما ترمقني
جواهر والدي· اسمعي ياحبيبتي فقد ابى قلبي الا يسكب
امامك مخبآتهِ · امامنا سنة العسل · سنة نصرفها مع
الذهب الكثير عَلَى شواطىء بحيرات سويسرا وفي متنزهات
ايطاليا وقرب قصور النيل وتحت اغصان ارز لبنان · سوف
تلتقين بالاميرات والسيدات فيحسدنك عَلَى حلاك وملابسك ·
كل ذلك لك مني· فهلا رضيت· آه ما احلى ابتسامك·
ابتسامك يحاكي ابتسام دهري· »

وبعد قليل رأيتهما يمشيان عَلَى مهل ويدوسان الازهار باقدامهما كما تدوس قدم الغني قلب الفقير ·

غابا عن بصري وانا أُفكر بمنزلة المال عند الحب · أُفكر بالمال مصدر شرور الانسان وبالحب منبع السعادة والنور ·

ظللت تائهاً في مسارح هذه الافكار حتى لمحت شبحين مرَّا من امامي وجلسا عَلَى الاعشاب · فتى وفتاة اتيا من جهة الحقول حيث اكواخ الفلاحين في المزارع · وبعد هنيهة من سكينة موئثرة سمعت هذا الكلام صادراً مع تنهدات عميقة من فم مصدور ·— « كفكفي الدمع ياحبيبتي ان المحبة التي شاءت ففتحت اعيننا وجعلتنا من عبادها تهبنا نعمة الصبر والتجلد · كفكفي الدمع وتعزّي لاننا تحالفنا عَلَى دين الحب ، ومن اجل الحب العذب نحتمل عذاب الفقر ومرارة الشقاء وتباريح الفراق ، ولا بد لي من مصارعة الايام حتى اظفر بغنيمة تليق بان اضعها بين يديك تساعدنا

عَلَى قطع مراحل العمر . ان المحبة ياحبيبتي ـ وهي الله ـ تقتبل منا هذه التنهدات وهذه الدموع كبخور عاطر وهي تكافئنا عليها بقدر ما نستحق اودعك ياحبيبتي فانا راحل قبل ان يغيب القمر»

ثم سمعت صوتاً رقيقاً تقاطعهُ زفرات انفاس متلهبة. صوت عذراء لطيفة اودعته كل ما في جوارحها من حرارة الحب ومرارة التفرُّق وحلاوة التجلد يقول: «الوداع يا حبيبي»

ثم افترقا وانا جالس تحت اغصان تلك الشجرة تتجاذبني ايدي الشفقة وتتساهمني اسرار هذا الكون الغريب

ونظرت تلك الساعة نحو الطبيعة الراقدة وتأَملت ملياً فوجدت فيها شيئاً لا حد له ولا نهاية . شيئاً لا يشترى بالمال . وجدت شيئاً لا تمحوه دموع الخريف ولا يميته حزن الشقاء . شيئاً لا توجده بحيرات سويسرا ولا متنزهات ايطاليا . وجدت شيئاً يتجلد فيحيا في الربيع ويثمر في الصيف. وجدت فيها — المحبة .

رؤيا

***

هناك في وسط الحقل على ضفة جدول بلوري
رأيت قفصاً حبكت ضلوعه يدٌ ماهرة . وفي احدى
زوايا القفص عصفور ميت وفي زاوية اخرى جرن
جف ماؤه وجرن نفدت بذوره

فوقفت وقد امتلكتني السكينة واصغيت صاغراً
كأن في الطائر الميت وصوت الجدول عظةً تستنطق
الضمير وتستفسر القلب . وتاملت فعلمت ان ذلك العصفور
الحقير قد صارع الموت عطشاً وهو بجانب مجاري المياه
وغالبه جوعاً وهو في وسط الحقول التي هي مهد الحياة
كغني اقفلت عليه ابواب خزائنه فمات جوعاً بين

الذهب ·

وبعد هنيهة رأيت القفص قد انقلب فجاةً وصار هيكل انسان شفافاً وتحول الطائر الميت الى قلب بشري فيه جرح عميق يقطر دماً قرمزياً وقد حاكت جوانب الجرح شفتي امرأة حزينة

ثم سمعت صوتاً خارجاً من الجرح مع قطرات الدماء قائلاً : ـ « انا هو القلب البشري اسير المادة وقتيل شرائع الانسان الترابي . في وسط حقل الجمال، عَلَى ضفة ينابيع الحياة امرت في قفص الشرائع التي سنها الانسان للشواعر · عَلَى مهد محاسن المخلوقات بين ايدي المحبة مت مهملاً لان ثمار تلك المحاسن ونتاج هذه المحبة قد حرّما عليّ · كل ما يشوقني صار بعرف الانسان عاراً وجميع ما اشتهيه اصبح في قضائه مذلةً ·

انا القلب البشري قد حبست في ظلمة سنن الجامعة

فضعفت ، وقيدت بسلاسل الاوهام فاحتضرت، واهملت في زوايا غي المدنية فقضيت ولسان الانسانية منعقد وعيونها ناشفة وهي تبتسم . »

سمعت هذه الكلمات ورأيتها خارجة مع قطرات الدم من ذلك القلب الجريح وبعد ذلك لم اعد ارى شيئاً ولم اسمع صوتاً فرجعت لحقيقتي .



الجمـال

ان الجمال دين الحكماء

شاعر هندي

يا ايها الذين حاروا في سبيل الاديان المتشعبة وهاموا في اودية الاعتقادات المتباينة فراوا حرية الجحود اوفى من قيود التسليم ، ومسارح النكران اسلم من معاقل الاتباع اتخذوا الجمال ديناً واتقوه رباً فهو الظاهر في كمال المخلوقات البادي في نتائج المعقولات . انبذوا الألى مثلوا التدين لهواً وآلفوا بين طمعهم بالمال وشغفهم بحسن المآل وامنوا بالوهية جمال كان بدء استحسانكم الحياة ومنبع محبتكم السعادة ، ثم توبوا اليهِ فهو المقرب قلوبكم من عرش المرأة مرآة شعائركم والمدرب انفسكم في مجال الطبيعة موطن حياتكم .

ويا ايها الذين ضاعوا في ليل التقولات وغرقوا في لجج الاوهام ان في الجمال حقيقة نافية الريب، مانعة الشك ونوراً باهراً يقيكم ظلمة البطل . تاملوا في يقظة الربيع ومجيء الصبح — ان الجمال نصيب المتاملين .

اصغوا لانغام الطيور ، وحفيف الاغصان ، وخرير الجدول — ان الجمال قسمة السامعين. انظروا وداعة الطفل، وظرف الشاب ، وقوّة الكهل ، وحكمة الشيخ — ان الجمال فتنة الناظرين .

تشببوا بنرجس العيون، وورد الخدود، وشقيق الفم — ان الجمال يتمجد بالمتشببين. سبحوا لغصن القد، وليل الشعر ، وعاج العنق — ان الجمال يسر بالمسبحين. كرسوا الجسد هيكلاً للحسن وقدسوا القلب مذبحاً للحب — ان الجمال يجازي المتعبدين .

تهللوا يا ايها الذين انزلت عليهم آيات الجمال وافرحوا اذ لا خوف عليكم ولا انتم تحزنون .

الحروف النارية

احفروا على لوح قبري :
« هنا رفات من كتب اسمه بماء »
جان كيتس

اهكذا تمرّ بنا الليالي؟ اهكذا تندثر تحت اقدام الدهر؟
اهكذا تطوينا الاجيال ولا تحفظ لنا سوى اسم تخطه عَلَى
صحفها بماء بدلاً من المداد ؟

اينطفئ هذا النور وتزول هذه المحبة وتضمحل هذه
الاماني ؟

ايهدم الموت كل ما نبنيه ويذري الهوآء كل ما نقوله
ويخفي الظل كل ما نفعله ؟

اهذه هي الحياة ؟ هل هي ماضٍ قد زال واختفت

آثاره ، وحاضر يركض لاحقاً بالماضي، ومستقبل لا معنى له الا اذا ما مرّ وصار حاضراً او ماضياً ؟

اتزول جميع مسرّات قلوبنا واحزان انفسنا بدون ان نعلم نتائجها ؟

اهكذا يكون الانسان مثل زبد البحر يطفو دقيقة علَى وجه الماء ثم تمرّ نسيمات الهوآء فتطفئهُ ويصبح كانهُ لم يكن؟

لا لعمري لحقيقة الحياة حياة . حياة لم يكن ابتداؤها في الرحم ولن يكون منتهاها في اللحد . وما هذه السنوات الا لحظة من حياة ازلية ابدية . هذا العمر الدنيوي مع كل ما فيه هو حلم بجانب اليقظة التي ندعوها الموت المخيف . حلم ولكن كل ما رأيناه وفعلناه فيه يبقى ببقاء الله .

فالاثير يحمل كل ابتسامة وكل تنهدة تصعد من قلوبنا ويحفظ صدى كل قبلة مصدرها المحبة . والملائكة تحصي كل دمعة يقطرها الحزن من مآقينا وتعيد علَى مسمع

لارواح السابحة في فضاء اللانهاية كل انشودة ابتدعها الفرح من شواعرنا.

هناك في العالم الآتي سنرى جميع تموجات شواعرنا واهتزازات قلوبنا وهناك ندرك كنه الوهيتنا التي نحتقرها الان مدفوعين بعوامل القنوط.

الضلال الذي ندعوه اليوم ضعفاً سيظهر في الغد كحلقة كيانها واجب لتكملة سلسلة حياة ابن آدم.

الاتعاب التي لا نكافأ عليها الآن ستحيا معنا وتذيع مجدنا

الارزاء التي نحتملها ستكون اكليلاً لفخرنا

هذا ولو علم «كيتس» ذلك البلبل الصداح ان اناشيده لم تزل تبث روح محبة الجمال في قلوب البشر لقال: «احفروا عَلَى لوح قبري — هنا بقايا من كتب اسمه عَلَى اديم السماء باحرف من نار.»

بين الخرائب

***

وشح القمر تلك الخمائل الهاطلة بمدينة الشمس برقعاً لطيفاً وظفر الهدو باعنة الكائنات وبانت تلك الخرائب الهائلة كانها جبار يهزأ بعاديات الليالي ٠

في تلك الساعة انبثق من لا شيء خيالان يشبهان ابخرة متصاعدة من بحيرة زرقاء وجلسا عَلَى عمود رخامي استأَصله الدهر من ذلك البناء الغريب يتأَملان بمحيط يحاكي مسارح السحر ٠ وبعد هنيهة رفع احدهما رأَسه ويصوت يشبه الصدى الذي تردده خلايا الاودية البعيدة قال :ـ « هذه بقايا هياكل بنيتها من اجلك يامحبوبتي وتلك رمم قصر رفعته لاستحسانك وقد دكت ولم يبقَ منها سوى

اثر يحدث الامم بمجد صرفت الحياة لتعميه وعزٍ استخدمت
الضعفاء لتعظيمه — تأملي يامحبوبتي فقد تغلبت العناصر
عَلَى مدينة شيدتها واستصغرت الاجيال حكمة رأيتها واضاع
النسيان ملكاً رفعته ولم يبقَ لي سوى دقائق المحبة التي
اولدها جمالك ونتائج الجمال الذي احياه حبك· بنيت هيكلا
في اورشليم للعبادة فقدسه الكهان ثم سحقته الايام وبنيت
هيكلا بين اضلعي للمحبة فقدسه الله ولن تقوى عليه القوات
صرفت العمر مستفسراً ظواهر الاشياء مستنطقاً اعمال المادة
فقال الانسان « ما احكمه ملكاً »، وقالت الملائكة « ما
اصغره حكيما »، ثم رأيتك يامحبوبتي وغنيت فيك نشيد
محبة وشوق ففرحت الملائكة اما الانسان فلم ينتبه . . .
كانت ايام ملكي كالحواجز بين نفسي الظمآنة والروح الجميل
المستقر في الكائنات ولما رأيتك استيقظت المحبة وهدمت
تلك الحواجز فأسفت عَلَى عمر صرفته مستسلماً لتيارات

القنوط حاسباً كل شيء تحت الشمس باطلا . حبكت الدروع وطرقت التروس فخافتني القبائل ولما انارتني المحبة احتقرت حتى من شعبي، ولكن عند ما جاء الموت اودع تلك الدروع والتروس والتراب وحمل محبتي الى الله »

وبعيد سكينة قال الخيال الثاني : ـ « مثلما تكتسب الزهرة عطرها وحياتها من التراب كذلك تستخلص النفس من ضعف المادة وخطإها قوةً وحكمةً »

عندئذٍ تمازج الخيالان وصارا خيالا واحداً وسارا . وبعد هنيهة اذاع الهواء هـذه الكلمات في تلك الانحاء :

« لا تحفظ الابدية الا المحبة لانها مثلها » . . .



رؤيا

ارفع هذه الرسالة الى الفيكونتس (س ٠ ل ٠) جوابا على رسالة اكرمتني بها

مشى الشباب امامي فاتبعت مسيره حتى اذا بلغنا حقلاً بعيداً وقف متأملاً الغيوم الجارية فوق خط الشفق كأنها قطيع نعاج بيضاء ، والاشجار المشيرة باغصانها العارية الى العلاء كأنها تطلب من السماء استرجاع اوراقها الغضة. فقلت اين نحن ايها الشباب؟ قال:ـ في حقول الحيرة فانتبه. قلت:ـ لنرجع الان وحشة المكان تخيفني ومرأى الغيوم والاشجار العارية يحزن نفسي. قال :ـ اصبر فالحيرة بدء المعرفة. ثم نظرت فاذا بحورية تقترب منا كالخيال فصرخت مستغرباً:ـ من هذه؟ قال :ـ هي ميلپومين ابنة جوبتير وربة الروايات

المحزنة«١» قلت :—وماذا تبتغي الاحزان مني وانت بجانبي ايها الشباب المفرح؟ قال:—جاءت لتريك الارض واحزانها ومن لا يرى الاحزان لا يرى الفرح ·

ووضعت الحورية يدها عَلى عينيَّ ولما رفعتها رأيتني منفصلا عن شبابي مجرداً من ثوب المادة. فقلت:—اين الشباب يا ابنة الالهة؟ فلم تجبني بل ضمتني بجناحيها وطارت بي الى قمة جبل عالٍ فرأيت الارض وما فيها منبسطة امامي كالصفحة واسرار سكانها ظاهرة لعينيَّ كالخطوط فوقفت متهيباً بجانب الحورية متأملاً خفايا الانسان مستفسراً

---

(١) كان للفنون عند قدماء اليونان تسع معبودات يدعونهن «ميوز» وكانت كل منهنَّ توحي الى مريدها بحسب محبته لها واهليته لعطاياها · وهذه اسماؤهن «ميلبومين» ربة الروايات المحزنة · «بوليمنا» ربة الشعر والغناء · «ثاليا» ربة الشعر الهزلي · «كاليوب» ربة الفصاحة والشعر الحماسي · «اراتو» ربة الموشحات والغزل · «ترسكوري» ربة الرقص · «اورانيا» ربة علم الفلك · «كليو» ربة التاريخ · (اوتربي) ربة فن الموسيقى ·

رموز الحياة. رأَيت وليتني لم ارَ . رأَيت ملائكة السعادة تحارب ابالسة الشقاء والانسان بينهما في حيرة تميل بهِ نحو الامآل تارة والقنوط اخرى . رأَيت الحب والبغض يلعبان بالقلب البشري:هذا يستر ذنوبه ويسكره بخمرة الاستسلام ويطلق لسانه بالمدح والاطراء ، وذاك يهيج خصوماتهِ ويعميهِ عن الحقيقـة ويغلق سامعته عن القول الصحيح. رأَيت المدينة جالسة كابنة الازقة متشبثة باذيال ابن آدم. ثم رأَيت البرية الجميلة واقفة عن بعد تبكي من اجله .

رأَيت الكهان يروغون كالثعالب ، والمسحاءَ الكذبة يحتالون عَلَى ميول النفس ، والانسان يصرخ مستنجداً بالحكمة وهي نافرة عنهُ غضبى عليه لانهُ لم يسمعها عندما نادته في الشوارع عَلَى رؤُوس الاشهاد . رأَيت القسوس يكثرون رفع عيونهم الى السماء وقلوبهم مطمورة في قبور المطامع . رأَيت الفتيان يتحببون بالسنتهم ويقتربون بامال

نزقهم . والوهيتهم بعيدة وعواطفهم نائمة . رأَيت المتشرعين يتاجرون بثرثرة الكلام بسوق الخداع والرياء والاطباء يلعبون بارواح البسطاء الواثقين . رأَيت الجاهل يجالس العاقل فيرفع ماضيه عَلَى عرش المجد ويوسد حاضره بساط السعة ويمدُّ لمستقبله فراش الفخامة . رأَيت الفقراء المساكين يزرعون والاغنياء الاقوياء يحصدون ويا كلون والظلم واقف هناك والناس يدعونه الشريعة . رأَيت لصوص الظلمة يسرقون كنوز العقل وحراس النور غرقى في كرى التواني . رأَيت المرأَة كالقيثارة في يد رجل لا يحسن الضرب عليها فتسمعه انغاماً لا ترضيه رأَيت تلك الكتائب المعرفة تحاصر مدينة الشرف الموروث . لكني رأَيت كتائب قد اندحرت لانها قليلة غير متحدة . رأَيت الحرية الحقيقية تسير وحدها في الشوارع وامام الابواب تطلب مأْوى والقوم يمنعونها . ثم رأَيت الابتذال يسير بموكب عظيم والناس

يدعونه الحرية . رايت الدين مدفوناً طيّ الكتاب والوهم قائماً مقامه . رأَيت الانسان يلبس الصبر ثوب الجبانة ويعطي التجلد لقب التواني ، ويدعو اللطف باسم الخوف. رأَيت المتطفل عَلَى موائد الاداب يدّعي والمدعوّ اليها صامتاً . رأَيت المال بينَ ايدي المبذر شبكة شروره وبين ايدي البخيل مجلبة لمقت الناس . وبين ايدي الحكيم لم ارَ مالاً .

عندما رأَيت كل هذه الاشياء صرخت متألمًا من هذا المنظر :ـ «اهذه هي الارض يا ابنة الالهة؟ اهذا هو الانسان؟ فاجابت بسكينة جارحة :ـ «هذه طريق النفس المفروشة شوكاً وقطرباً . هذا ظل الانسان . هذا هو الليل وسيجيءُ الصباح»، ثم وضعت يدها عَلَى عينيّ ولما رفعتها وجدتني وشبابي سائراً عَلَى مهلٍ ، والأَمل يركض امامي

الامس واليوم

***

مشى الموسر في حديقة صرحه ومشى الهم متبعاً خطواته وحام القلق فوق رأسه ، مثلما تحوم النسور عَلَى جثة صفعها الموت ، حتى بلغ بحيرة تسابقت في صنعها ايدي الانسان وجمعت جوانبها منطقة من الرخام المنحوت . فجلس هناك ينظر آناً الى المياه المتدفقة من افواه التماثيل تدفق الافكار من مخيلة العاشق ، وآونة الى قصره الجميل الجالس عَلَى تلك الرابية جلوس الخال عَلَى وجنة الفتاة .

جلس فجالسته الذكرى ونشرت امام عينيه صفحات كتبها الماضي في رواية حياتهِ فاخذ يتلوها والدموع تحجب عنهُ محيطاً صنعه الانسان واللهفة تعيد الى قلبه رسوم

ايام نسجتها الالهة حتى ابت لوعته الا الكلام فقال:

« كنت بالامس ارعى الغنم بين تلك الروابي المخضرة وافرح بالحياة وانفخ في شبابتي معلناً غبطتي . وها انا اليوم اسير المطامع يقودني المال الى المال، والمال الى الانهماك، والانهماك الى الشقاء . كنت كالعصفور مغرداً ، وكالفراش متنقلاً ، ولم يكن النسيم اخف وطأة عَلَى رؤوس الاعشاب من خطوات اقدامي في تلك الحقول ، وها انا الآن سجين عادات الاجتماع: اتصنع بملابسي وعَلَى مائدتي وبكل اعمالي من اجل ارضاء البشر وشرائعهم . كنت اود لو اني خلقت لاتمتع بمسرات الوجود ولكني اراني اليوم متبعاً بحكم المال سبل الغم، فصرت كالناقة المثقلة بحمل من الذهب والذهب يميتها . اين السهول الواسعة ؟ اين السواقي المترنمة؟ اين الهواء النقي ؟ اين مجد الطبيعة؟ اين الوهيتي؟ قد ضيعت كل ذلك ولم يبق لي غير ذهب احبه فيستهزئ بي، وعبيد اكثرتهم فقل

مروري، وصرح رفعته ليهدم غبطتي . كنت وابنة البدو نسير ، والعفاف ثالثنا ، والحب نديمنا ، والقمر رقيبنا، واليوم اصبحت بين اللواتي يمشين ممدودات الاعناق، غامزات العيون، الشاريات الحسن بالسلاسل والمناطق ، البائعات الوصل بالاساور والخواتم . كنت والفتيان نخطر بين الاشجار كسرب الغزلان ، نشترك بانشاد الاغاني ، نقتسم ملذات الحقول، واليوم صرت بين القوم كالنعجة بين الكواسر، امشي في الشوارع فتنفتح عليّ عيون البغض ويشار اليّ باصابع الحسد. وان ذهبت الى المتنزهات لا ارى غير وجوه كالحة ورؤُوس شامخة . بالامس اعطيت الحياة وجمال الطبيعة ، واليوم سلبتهما. بالامس كنت غنياً بسعادتي ، واليوم اصبحت فقيراً بمالي، بالامس كنت ونعاجي مثل ملك رؤُوف ورعية، واليوم صرت لدى الذهب كالعبد المتصاغر امام السيد المظلوم . . . ما كنت احسب ان المال يطمس عين نفسي

ويقودها الى مغائر الجهل ولم ادرِ ان ما يحسبه الناس مجداً كان واحرّ قلباه جحيماً . . . . »

وقام الموسر من مكانه ومشى ببطء نحو قصره متأوها مردداً : « اهذا هو المال ؟ اهذا الاله الذي صرت كاهنه ؟ اهذا ما نبتاع بالحياة ولا يمكننا ان نستبدل به ذرة من الحياة ؟ من يبيعني فكراً جميلا بقنطار من الذهب ؟ من يأخذ قبضة من الجواهر بدقيقة محبة ؟ من يعطيني عيناً تري الجمال ويأخذ خزائني ؟ »

ولما وصل الى باب القصر نظر نحو المدينة نظرة ارميا الى اورشليم واومأ بيده نحوها كأنهُ يرثيها وقال بصوت عالٍ : « ايها الشعب السالك في الظلمة ، الجالس في ظل الموت ، الراكض وراء التعاسة ، القاضي بالبطل ، المتكلم بالحماقة ، الى متى تأكل الشوك والحسك وترمي الثمار والزهر الى الهاوية ؟ حتى متى تسكن الوعر والخرائب تاركاً بستان الحياة ؟

لماذا ترتدي الاطمار البالية وثوب الدمقس قد فصل من اجلك ؟ ايها الشعب قد انطفأ سراج الحكمة فاسقه زيتاً .. وخرّب ابن السبيل كرم السعادة فاحرسه . وسرق اللص خزائن راحتك فانتبه ! »

في تلك الدقيقة وقف امام الغني فقير ومدّ يده متسولاً ، فنظر اليه وقد انضمت شفتاه المرتجفتان وانبسطت سحنته المنقبضة وانبعث من عينيهِ نور لطيف . كان الامس الذي رثاه بقرب البحيرة قد مرّ مسلماً فاقترب من المستعطي وقبله قبلة المحبة والمساواة وملأ يده ذهباً وقال والرأفة تسيل من كلماتهِ : « خذ يا اخي الآن وعد غداً مع اترابك واسترجعوا اموالكم » فابتسم الفقير ابتسامة الزهرة الذابلة بعيد المطر وراح مسرعاً

حينئذٍ دخل الموسر الى قصره قائلاً : « كل شيء حسن في الحياة حتى المال لانهُ يعلم الانسان امثولة . انما المال

كالارغن يسمع من لا يحسن الضرب عليهِ انغاماً لا ترضيه.

المال كالحب يميت من يضنُّ بهِ ويحيي واهبه.



رحماك يانفس رحماك

***

حتى مَ تنوحين يانفسي وانت عالمة بضعفي؟ الى متى تضجين وليس لدي سوى كلام بشري اصور بهِ احلامك؟

انظري يانفسي، فقد انفقت عمري مصغياً لتعاليمك.

تأملي يامعذبتي، فقد اتلفت جسمي متبعاً خطواتك.

كان قلبي مليكي، فصار الآن عبدك، وكان صبري مؤنسي، فغدا بك عذولي. كان الشباب نديمي، فاصبح اليوم لائمي، وهذا كل ما اوتيته من الالهة، فمَّ تستزيدين وبمَ تطمعين؟

قد انكرت ذاتي وتركت ملاذ حياتي وغادرت مجد عمري ولم يبق لي سواك، فاقضي عليَّ بالعدل، فالعدل مجدك

او استدعي الموت واعتقي من الاسر معناك

رحماك يانفس فقد حملتني من الحب ما لا اطيقه: انت والحب قوة متحدة، وانا والمادة ضعف متفرق، وهل يطول عراكٌ بين قويٍّ وضعيف؟

رحماك يانفس فقد اريتني السعادة عن بعد شاسع: انت والسعادة عَلَى جبل عالٍ، وانا والشقاء في اعماق الوادي، وهل يتم لقاءٌ بين علو ووطوءة؟

رحماك يانفس، فقد ابنت لي الجمال واخفيتهِ: انت والجمال في النور، وانا والجهل في ظلمة، وهل يمتزج النور بالظلمة؟

انت يانفس تفرحين بالآخرة قبل مجيء الآخرة، وهذا الجسد يشقى بالحياة وهو في الحياة

انت تسيرين نحو الابدية مسرعة، وهذا الجسد يخطو نحو الفناء ببطء، فلا انت تتمهلين ولا هو يسرع، وهذا يانفس منتهى التعاسة.

انت ترتفعين نحو العلو بجاذب السماء ، وهذا الجسد يسقط الى تحت بجاذبية الارض، فلا انت تعزينه ولا هو يهنئك ، وهذه هي البغضاء .

انت يانفس غنية بحكمتك، وهذا الجسد فقير بسليقته ، فلا انت تتساهلين ولا هو يتبع، وهذا اقصى الشقاء .

انت تذهبين في سكينة الليل نحو الحبيب و تتمتعين منه بضمة وعناق، وهذا الجسد يبقى ابداً قتيل الشوق والتفريق .

رحماكِ يانفس رحماكِ



الارملة وابنها

***

هجم الليل مسرعاً عَلَى شمالي لبنان مستظهراً عَلَى نهار تساقطت فيهِ الثلوج عَلَى تلك القرى المحيطة بوادي قاديشا (١) جاعلة تلك الحقول والهضاب صفحة بيضاء ترسم عليها الارياح خطوطاً تمحوها الارياح وتتلاعب بها العواصف مازجة الجو الغضوب بالطبيعة الهائلة ·

اختبأَ الانسان في منازله والحيوان في مرابضهِ

---

(١) وادي قاديشا اي وادي القديسين سمي بهذا الاسم اذ كان ملجأً للزاهدين وماوى النساك الهاربين من شقاء العالم وضجة الاجتماع حيث كانوا يجدون الكهوف المخروقة يد الطبيعة والسكينة المالكة تلك الاماكن وهو وادٍ عميق كثيراً ما ترغب الشمس في ان تفوز بنظرة من جميعه نظراً لعمقه واتساعه· وادٍ كانه جرح بليغ في صدر لبنان خرقه ناب الدهر غدرا بعد ان كان صديقاً صدوقاً

وسكنت حركة كل ذي نسمة حية ولم يبقَ غير بردقارص وزمهرير هائج وليل اسود مخيف وموت قوي مريع ·

وكان في منزل منفرد بين تلك القرى امرأة جالسة امام موقد تنسج الصوف رداء وبقربها وحيدها ينظر تارة الى اشعة النار ، وطوراً الى وجه امه الهادىء · في تلك الساعة عصفت الارياح بشدت وهزت اركان ذلك البيت ، فذعر الصبي واقترب من امه محتمياً بحنوها من غضب العناصر ، فضمته الى صدرها وقبلته ثم اجلسته عَلَى ركبتيها وقالت : « لا تجزع يا ابني ، فالطبيعة تريد ان تعظ الانسان مظهرة عظمتها تجاه صغره ، وقوتها بجانب ضعفه · لا تخف ياولدي فمن وراء الثلوج المتساقطة والغيوم المتلبدة والارياح العاصفة روح قدوس كليٌّ عالم بما تحتاجه الحقول والآكام · من وراء كل شيء قوة ناظرة الى حقارة الانسان بعين الشفقة والرحمة · · لا تجزع يافلذة كبدي ، فالطبيعة التي ابتسمت

في الربيع وضحكت في الصيف وتأوهت في الخريف تريد ان تبكي الآن، ومن دموعها الباردة تستقي الحياة الرابضة تحت اطباق الثرى. نم ياولدي، ففي الغد تستيقظ وترى السماء صافية الاديم، والحقول لابسة رداء الثلج الناصع مثلما ترتدي النفس ثوب الطهر بعيد مصارعة الموت. نم ياوحيدي، فوالدك ناظر الآن الينا من مسارح الابدية وحبذا عاصفة وثلوج تقربنا من ذكر تلك النفوس الخالدة. نم يا حبيبي، فمن هذه العناصر المتحاربة بعنف سوف تجني الازهار الجميلة عندما يجيء نيسان. كذا الانسان يا ابني لا يستثمر المحبة الا بعد بعاد أليم، وصبر مرّ، وقنوط متلف. نم يا صغيري، فسوف تأتي الاحلام العذبة الى نفسك غير خائفة من هيبة الليل وبطش البرد»

ونظر الصبي الى امه وقد كحل النعاس عينيه وقال:

« لقد اثقل اجفاني الكرى يا اماه واخاف ان انام قبل تلاوة

الصلاة ، فعانقته الام الحنونة ونظرت من وراء الدموع الى وجهه الملاكي ثم قالت: «قل معي ياولدي— اشفق يارب عَلَى الفقراء واحمهم من قساوة البرد القارص واستر جسومهم العارية بايديك. انظر الى اليتامى النائمين في الاكواخ وانفاس الثلج تكلم اجسامهم. اسمع يارب نداء الارامل القائمات في الشوارع بين مخالب الموت واظفار البرد . امدد يدك يارب الى قلب الغني وافتح بصيرته ليرى فاقة الضعفاء المظلومين. ارفق يارب بالجائعين الواقفين امام الابواب في هذا الليل الظلوم واهدِ الغرباء الى المآوي الدافئة وارحم غربتهم. انظر يارب الى العصافير الصغيرة واحفظ بيمينك الاشجار الخائفة من قساوة الرياح .. ليكن هذا يارب»

ولما عانق الكرى نفس الصبي مددته والدته عَلَى فراشه وقبلت جبهته بشفتين مرتجفتين ثم رجعت وجلست امام الموقد تنسج له الصوف رداء .

الدهر والامة

***

على سفح لبنان بقرب جدول ينسلُّ بين الصخور كاسلاك فضية جلست راعية يحيط بها قطيع غنم مهزول يرتعي الاعشاب اليابسة بين الاشواك الغضة — صبية تنظر نحو الشفق البعيد كأنها تقرأ ما آتي الآتي عَلَى صفحات الجو وقد نمق الدمع عينيها مثلما ينمق الندى ازهار النرجس وفتح الاسى شفتيها كأنه يريد سلب قلبها تنهداً

ولما جاء المساء واخذت تلك الروابي تلتفُّ برداء الظل وقف امام الصبية فجأةً شيخ يتدلى شعره الابيض عَلَى صدره وكتفيه حاملاً بيمينه منجلاً سنيناً وقال بصوت يحاكي هدير الامواج «سلامٌ عَلَى سوريا»

فوقفت الفتاة مذعورة واجابته بصوت يقطعه الوجل ويصله الحزن قائلة : « ماذ تبتغي الآن مني ايها الدهر ؟ »

ثم اومأت نحو اغنامها وزادت : « هذا بقايا قطيع كان يملأ الاودية .

هذه فضلة مطامعك فهل جئت لتستزيد منها .

هذه هي المسارح التي اجدَ بها دوس قدميك وقد كانت منبت الخصب والرزق . كانت نعاجي ترتعي رؤوس الازهار وتدر لبناً ذكياً فها هي الان خمص البطون تقضم الاشواك واصول الاشجار مخافة الفناء .

اتق الله يادهر وانصرف عني فقد كرّهتني الحياة ذكرى مظالمك وحببت اليَّ الموت قساوة منجلك .

اتركني ووحدتي ارشف الدمع شراباً وانتشق الحزن نسيما واذهب يادهر الى الغرب حيث القوم في عرس الحياة وعيدها ودعني انتحب في مآتم انت عاقدها »

فنظر الشيخ اليها نظرة الاب وقد اخفى منجله طي اثوابه وقال :

«ما اخذت منك يا سوريا الا بعض عطاياي وما كنت ناهباً قط بل مستعيراً اردّ ، ووفياً ارجع. واعلمي ان لاخواتك الام نصيبا باستخدام مجد كان عبدك، وحقاً بلبس رداء كان لك. انا والعدل اقنومان لذات واحدة. فلا يجمل بي سوى اعطاء اخواتك ما اعطيتك ولست قادراً عَلَى تسويتكن في محبتي لان المحبة لا تتقسم عَلَى السواء . لك ياسوريا اسوة بجاراتك مصر وفارس واليونان اذ لكل منهن قطيع يشابه قطيعك ومرعى نظير مرعاك . ان ما تدعينه انحطاطاً ياسوريا ادعوه نوماً واجباً يعقبه النشاط والعمل، فالزهرة لا تعود الى الحياة الا بالموت،والمحبة لا تصير عظيمة الا بعد الفراق»

واقترب الشيخ من الفتاة ومد يده قائلا : «هزي يدي

يا ابنة الانبياء » فاخذت يده وهي تنظر اليهِ من وراء الدمع وقالت : « الوداع ايها الدهر الوداع » فاجابها : « الى اللقاء ياسوريا الى اللقاء »

حينئذٍ اختفى الشيخ كما يختفي البرق فنادت الصبية اغنامها ومشت مرددة : « هل من لقاء ياترى هل من لقاء ؟ »



امام عرش الجمال

***

هربت من الاجتماع وهمت في ذاك الوادي الوسيع متبعاً مجاري الجدول تارةً ومصغياً الى محاورات العصافير طوراً حتى بلغت مكاناً حمته الاغصان من نظرات الشمس فجلست اسامر وحدتي واناجي نفسي — نفس ظامئة رأت كل ما يرى سراباً وكل ما لا يرى شراباً

ولما انطلقت عاقلتي من محبس المادة الى فضاء الخيال التفت فاذا بفتاة واقفة عَلَى مقربة مني. حوريةٌ لم تتخذ من الحلى والحلل سوى غصن من الكرمة تستر به بعض قامتها واكليل من الشقيق يجمع شعرها الذهبي ... واذ علمت من نظراتي انني صرت مسلوب الفجأة والحيرة قالت :

« انا ابنة الاحراج فلا تجزع » قلت وقد ردت حلاوة
صوتها بعض رمقي : « وهل يقطن من كان مثلك برية
سكنتها الوحشة والوحوش؟ قولي لي بعيشك من انت ومن
اين اتيتِ ؟ » فقالت وقد جلست عَلَى الاعشاب : « انا رمز
الطبيعة . انا العذراء التي عبدها اباؤك فبنوا لها مذابح
وهياكل في بعلبك وافقا وجبيل . » قلت : « تلك الهياكل قد
انهدمت وعظام اجدادي ساوت اديم الارض ولم يبقَ من
آثار الهتهم واديانهم سوى صفحات قليلة في بطون الكتب »
قالت : « بعض الالهة يحيون بحياة عبادهم ويموتون بموتهم ·
وبعضهم يحيون بالوهية ازليـة ابدية · اما الوهيتي فهي
مستمدة من جمال تراه كيفما حولت عينيك — جمال هو
الطبيعة باسرها · جمال كان بدء سعادة الراعي بين الربى ،
والقروي بين الحقول والعشائر الرحل بين الجبل والساحل ·
جمال كان للحكيم مرقاةً الى عرش حقيقة لا تجرح » قلت

ودقات قلبي تقول ما لا يعرفه اللسان : « ان الجمال قوة مخيفة رهيبة . » فقالت وعلى شفتيها ابتسامة الازهار وفي نظراتها اسرار الحياة : « انتم البشر تخافون كل شي حتى ذواتكم . تخافون السماء وهي منبع الامن . تخافون الطبيعة وهي مرقد الراحة وتخافون اله الالهة وتعزون اليه الحقد والغضب وهو ان لم يكن محبة ورحمة لم يكن شيئاً . »

وبعد سكينة مازجتها الاحلام اللطيفة سألتها : « ما هذا الجمال؟ فقد تباين الناس بتعريفه ومعرفته مثلما اختلفوا بتمجيده ومحبته . » قالت : «هو ما كان بنفسك جاذب اليه — هو ما تراه وتود ان تعطي لا ان تأخذ — هو ما شعرت عند ملقاه بأياد ممدودة من اعماقك لضمه الى اعماقك — هو ما تحسبه الاجسام محنة والارواح منحة — هو الفة بين الحزن والفرح — هو ما تراه محجوباً وتعرفه مجهولاً وتسمعه صامتاً — هو قوة تبتدئ في قدس اقداس ذاتك وتنتهي

في ما وراء تخيلاتك ...... »

واقتربت ابنة الاحراج مني ووضعت يدها المعطرة عَلَى عينيَّ ولما رفعتها رأَيتني وحيداً في ذلك الوادي ، فرجعت ونفسي مرددة «ان الجمال هو ماتراه وتود ان تعطي لا ان تأَخذ»



زيارة الحكمة

***

في هدو الليل جاءت الحكمة ووقفت بقرب مضجعي ونظرت اليَّ نظرة الام الحنون ومسحت دموعي وقالت : « سمعت صراخ نفسك فاتيت لاعزيها · ابسط قلبك امامي فاملأُه نوراً · سلني فاريك سبيل الحق » فقلت : «من انا ايتها الحكمة وكيف سرتُ الى هذا المكان المخيف؟— ما هذه الاماني العظيمة والكتب الكثيرة والرسوم الغريبة؟ ماهذه الافكار التي تمر كسرب الحمام؟ ما هذا الكلام المنظوم بالميل، المنثور باللذة؛ ما هذه النتائج المحزنة، المفرحة، المعانقة روحي، المساورة قلبي ؟ ما هذه العيون المحدقة بي ، الناظرة اعماقي، المنصرفة عن الآمي ؟ ما هذه الاصوات النائحة عَلَى

ايامي، المترنمة بصغري ؟ ما هذا الشاب المتلاعب باماليّ، المستهزىء بعواطفي، الناسي اعمال الامس، الفارح بتفاهة الحال، المستنكف من بطء الغد؟ ما هذا العالم السائر بي الى حيث لا ادري، الواقف معي موقف الهوان ؟ ما هذه الارض الفاغرة فاها لابتلاع الاجسام، المفرجة صدرها لسكنى المطامع ؟ ما هذا الانسان الراضي بمحبة السعادة، ودون وصالها الهاوية، الطالب قبلة الحياة والموت يصفعه، الشاري دقيقة اللذة بعام الندامة، المستسلم للكرى والاحلام تناديه، السائر مع سواقي الجهالة الى خليج الظلمة ؟ ما هذه الاشياء ايتها الحكمة ؟ ...»

فقالت: «انت تريد ايها البشري ان ترى هذا العالم بعين اله وتريد ان تفقه مكنونات العالم الآتي بفكرة بشرية وهذا منتهى الحماقة. اذهب الى البرية تجد النحلة حائمة حول الزهور والنسر ينقضُّ عَلَى الفريسة. ادخل

بيت جارك ترى الطفل مدهوشاً باشعة النار والوالدة مشغولة باعمال منزلها · كن انت كالنحلة ولا تصرف ايام الربيع ناظراً اعمال النسر · كن كالطفل وافرح باشعة النار ودعْ والدتك وشأْنها · كل ما تراه كان ويكون من اجلك . الكتب الكثيرة والرسوم الغريبة والافكار الجميلة هي اشباح نفوس الذين تقدموك · الكلام الذي تحوكه هو الواصل بينك وبين اخوانك البشر · النتائج المحزنة المفرحة هي البذور التي القاها الماضي في حقل النفس وسوف يستغلها المستقبل··· ان هذا الشباب المتلاعب باميالك هو هو الفاتح باب قلبك لدخول النور · ان هذه الارض الفاغرة فاها هي التي تخلص نفسك من عبودية جسدك . ان هذا العالم السائر بك هو قلبك، فقلبك هو كل ما تظنه عالماً· ان هذا الانسان الذي تراه جاهلاً وصغيراً هو الذي جاء من لدن الله ليتعلم الفرح بالحزن والمعرفة من الظلمة···»

ووضعت الحكمة يـدها عَلَى جبهتي الملتهبة وقالت :

« سر الى الامام ولا تقف قط فالامام هو الكمال . سر ولا تخشَ اشواك السبيل فهي لا تستبيح الا الدماء الفاسدة. »



حكاية صديق

١

عرفتهُ فتىً ضائعاً في مسالك حياته، محكوماً بمفاعيل شبيبته، مستميتاً في ادراك غرض امياله. عرفته زهرة لينة حملتها رياح النزق الى لجة الشهوات

عرفتهُ في تلك القرية صبياً شرساً يمزق بيديه اعشاش العصافير ويميت افراخها، ويسحق برجليه تيجان الازهار ويبيد محاسنها. وعرفتهُ في المدرسة يافعاً، بعيداً عن الاقتباس، قريباً من الغطرسة، عدواً للسكينة. وعرفتهُ في المدينه شاباً يتاجر بشرف ابيه في سوق الخسائر، ويبذر امواله في نوادي التهتك، ويعطي عاقلته الى ابنة الكرمة.

ولكني كنت احبهُ · احبهُ محبة يساورها الاسف ويمازجها الاشفاق· احبهُ لان منكراته لم تكن نتائج نفس صغيرة ، بل كانت مآتيَ نفس ضعيفة قانطة · النفس ايها الناس تميل عن سبل الحكمة مكرهةً وتعود اليها مريدةً · وللشبيبة اعاصير تهبُّ حاملة غباراً ورمالاً تملأُ الاجفان فتغمضها وتعميها — تعميها الى امد بعيد في اكثر المواطن ·

احببت هذا الفتى وكنت مخلصاً له لانني رأَيت حمامة ضميره تغالب نسر سيئاته فتغلب تلك الحمامة بقوة عدوّها لا بجبانتها . الضمير قاضٍ عادل ضعيف والضعف واقف في سبيل تنفيذ احكامه

قلت احببتهُ، والمحبة تأْتي باشكال مختلفة، فهي الحكمة آناً ، والعدل اونةً، والامل اخرى ، فمحبتي له كانت املي باستظهار نور شمسه الوضعي عَلَى ظلمة متاعبها العرضية · عَلَى انني كنت جاهلاً انى واين تتبدل الادران بنقاوة ،

والشراسة بوداعة، والطيش بحكمة، والانسان لا يدري كيفية انعتاق النفس من عبودية المادة الا بعد الانعتاق؛ ولا يعرف كيف تبتسم الازهار الا بعد مجيء الصباح

٢

مرّت الايام آخذة باعناق الليالي، وانا اذكر ذلك الفتى بغصات مؤلمة، واردف لفظ اسمه بتنهيدات تجرح القلب وتدمي. حتى وافاني بالامس كتاب منهُ قال فيهِ:

— تعال اليّ ياصديقي فانا اريد ان اجمع بينك وبين فتىً يسر قلبك لقاؤُه وتطيب نفسك بمعرفته...

قلت: ويحي! أَ يريد ان يشفع صداقته المحزنة بصداقة آخر عَلَى شاكلتهِ، أَوَ لم يكن وحده امثولة كافية لتعريف آيات الضلال؟ وهل يروم الآن تذييل تلك الامثولة بآيات رفاقه كيلا يفوتني حرف من كتاب المادة؟ ثم قلت: اذهب فالنفس تجني من العوسج تيناً بحكمتها،

والقلب يستمدّ من الظلمة نوراً بمحبته... ولما جاء الليل ذهبت فوجدت ذلك الفتى منفرداً في غرفتهِ يقرأ كتاباً شعرياً لخيبتهُ مستغرباً وجود الكتاب بين يديه وقلت: «اين الصديق الجديد» قال: «هو انا يا خليلي هو انا» ثم جلس بهدوءٍ ما عهدتهُ فيهِ ونظر اليّ وفي عينيهِ نور غريب يخرق الصدر ويحيط بالجوارح. تلك العيون التي طالما تأملتها ولم ارَ فيها غير العنف والقساوة اصبحت تبعث نوراً يملأ القلب انعطافاً. ثم قال بصوت حسبتهُ صادراً من غيره: «ان ذاك الذي عرفته في الحداثة ورافقته ايام المدرسة وماشيته في الشبيبة قد مات وبموته ولدت انا. انا صديقك الجديد فخذ يدي». اخذت يده فشعرت عند الملامسة ان في تلك اليد روحاً لطيفاً يسري مع الدماء — تلك اليد العنيفة قد صارت لينة. تلك الاصابع التي شابهت بالامس مخالب النمر باعمالها اصبحت تلامس القلب برقتها. ثم قلت —

وليتني اذكر غرابة ما قلت : « من انت وكيف سرتَ واين صرت ؟ هل اتخذك الروح هيكلاً فقدّسك ام انت تمثل امامي دوراً شعرياً ؟ » قال : « إي يا صديقي ان الروح قد حلّ عليّ وقدسني . الحب العظيم قد جعل قلبي مذبحاً طاهراً . هي المرأة ياخليلي — المرأة التي ظننتها بالامس العوبة الرجل قد انقذتني من ظلمة الجحيم وفتحت امامي ابواب الفردوس فدخلت . المرأة الحقيقية قد ذهبت بي الى اردن محبتها وعمدتني . تلك التي احتقرت اختها بغباوتي قد رفعتني الى عرش المجد . تلك التي دنست رفيقتها بجهلي قد طهرتني بعواطفها . تلك التي استعبدتُ بنات جنسها بالذهب قد حررتني بجمالها . . . تلك التي اخرجت آدم الاول من الجنة بقوة ارادتها وضعفه قد اعادتني الى تلك الجنة بحنوها وانقيادي . »

في تلك الدقيقة نظرت اليهِ فوجدت المدامع تتلألأ

في عينيهِ ، والابتسام يراود شفتيه ، وشعاع الحب يكلل راسه ، فاقتربت منـــه وقبلت جبهته متبركاً مثلما يقبل الكاهن صحن المذبح . ثم ودعتهُ ورجعت مردداً قوله :
« تلك التي اخرجت آدم من الجنة بقوة ارادتهـــا وضعفه قد اعادتني الى تلك الجنة بحنوها وانقيادي . »



بين الحقيقة والخيال

***

تحملنا الحياة من مكان الى مكان وتنتقل بنا التقادير من محيط الى آخر ونحن لا نرى الا ما وقف عثرة في سبيل سيرنا ولا نسمع سوى صوت يخيفنا

يتجلى لنا الجمال عَلَى كرسي مجده فنقترب منهُ وباسم الشوق ندنس اذياله ونخلع عنهُ تاج طهره · يمر بنـا الحب مكتسياً ثوب الوداعة فنخافه ونختبئ في مغائر الظلمة او نتبعهُ ونفعل باسمه الشرور ، والحكيم بيننا يحمله نيراً ثقيلاً وهو الطف من انفاس الازهار وارق من نسيمات لبنان · تقف الحكمة في منعطفات الشوارع وتنادينا عَلَى رؤُوس لاشهاد فنحسبها بطلاً ونحتقر متبعيها · تدعونا الحرية الى

مائدتها لنلتذ بخمرها واطعمتها فنذهب ونشره فتصير تلك المائدة مرسحاً للابتذال ومجالاً لاحتقار الذات . تمد الطبيعة نحونا يد الولاء وتطلب منا ان نتمتع بجمالها فنخشى سكينتها ونلتجئ الى المدينة وهناك نتكاثر عَلى بعضنا بعضاً كقطيع رأى ذئباً خاطفاً . تزورنا الحقيقة منقادة بابتسامة طفل او قبلة محبوبة فنوصد دونها ابواب عواطفنا ونغادرها كمجرم دنس . القلب البشري يستنجد بنا والنفس تنادينا ونحن اشد صمماً من الجماد لا نعي ولا نفهم واذا ما سمع احد صراخ قلبه ونداء نفسه قلنا هذا ذو جنة وتبرأنا منهُ

هكذا تمر الليالي ونحن غافلون وتصافحنا الايام ونحن خائفون من الليالي والايام . نقترب من التراب والالهة تنتمي الينا ونمر عَلى خبز الحياة والمجاعة تتغذى من قوانا فما احب الحياة الينا وما ابعدنا عن الحياة

ياخليلي الفقير

***

يامن ولدت عَلَى مهد الشقاء وربيت عَلَى احضان الذل وشببت في منازل الاستبداد ، انت الذي تاكل خبزك اليابس بالتنهد وتشرب ماءَك العكر ممزوجاً بالدموع والعبرات

ويا ايها الجندي المحكوم عليهِ من شرائع البشر الظالمة بان يترك رفيقته وصغاره ومحبيه ويذهب الى ساحة الموت من اجل طمع يدعونهُ الواجب

ويا ايها الشاعر الذي يعيش غريباً في وطنه ومجهولاً بين معارفه ويرضى من العيش بمضغة ومن الحطام بالحبر والورق

ويا ايها السجين المطروح في الظلمة من اجل ذنب صغير جسّمه غيّ الذين يقابلون الشر بالشر واستغربته عاقلة الالى يرومون الاصلاح بواسطة الفساد

وانتِ ايتها المسكينة التي وهبها الله جمالاً رآه فتى العصر فاتبعكِ وغرك وتغلب علىَ فقرك بالذهب فاستسلمت له وغادرك فريسة ترتعد بين مخالب الذل والتعاسة

انتم يا احبائي الضعفاء شهداء شرائع الانسان انتم تعساء وتعاستكم نتيجة بغي القوي وجور الحاكم وظلم الغني وانانية عبد الشهوات

لا تقنطوا فمن مظالم هذا العالم، من وراء المادة، من وراء الغيوم، من وراء الاثير، من وراء كل شيء — قوة هي كل عدل وكل شفقة وكل حنو وكل محبة

انتم مثل ازهار نبتت في الظل . سوف تمر نسيمات لطيفة وتحمل بذوركم الى نور الشمس فتحيون هناك حياة

جميلة

انتم نظير اشجار عارية مثقلة بثلوج الشتاء . سوف يأتي الربيع ويكسوكم اوراقاً خضراء غضة

سوف تمزق الحقيقة غشاءَ الدمع الحاجب ابتساماتكم

انا اقبلكم يا اخوتي واحتقر مضطهديكم



مناجاة في الحقل

***

عند الفجر قبيل بزوغ الشمس من وراء الشفق جلست في وسط الحقل اناجي الطبيعة . في تلك الساعة المملوءَة طهراً وجمالاً بينما كان الانسان مستتراً طي لحف الكرى تتناوبهُ الاحلام تارة واليقظة اخرى كنت متوسداً الاعشاب استفسر كل ما ارى عن حقيقة الجمال واستحكي ما يرى عن جمال الحقيقة

ولما فصلت تصوراتي بيني وبين البشريات وازاحت تخيلاتي برقع المادة عن ذاتي المنوية شعرت بنموّ روحي يقربني من الطبيعة ويبين لي غوامض اسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها

وبينما كنت علَى هذه الحالة مرَّ النسيم بين الاغصان متنهداً تنهد يتيم يائس فسالت مستفهماً : « لماذا تتنهد يا ايها النسيم اللطيف؟» فاجاب لانني ذاهب نحو المدينة مدحوراً من حرارة الشمس . الى المدينة حيث تتعلق باذيالي النقية مكروبات الامراض وتتشبث بي انفاس البشر السامة . من اجل ذلك تراني حزيناً »

ثم التفتُّ نحو الازهار فرأَيتها تذرف من عيونها قطرات الندى دمعاً فسأَلت: «لماذا البكاء يا ايتها الازهار الجميلة؟» فرفعت واحدة منهنَّ راسها اللطيف وقالت:«نبكي لان الانسان سوف يأْتي ويقطع اعناقنا ويذهب بنا نحو المدينة ويبيعنا كالعبيد ونحن حرائر واذا ما جاءَ المساء وذبلنا رمى بنا الى الاقذار . كيف لا نبكي ويد الانسان القاسية سوف تفصلنا عن وطننا الحقل »

وبعد هنيهة سمعت الجدول ينوح كالثكلى فسالتهُ :

« لماذا تنوح يا ايها الجدول العذب؟» فاجاب لانني سائر كرهاً الى المدينة حيث الانسان يحتقرني ويستعيض عني بعصير الكرمة ويستخدمني لحمل ادرانه . كيف لا انوح وعن قريب تصبح نقاوتي وزراً وطهارتي قذراً .»

ثم اصغيت فسمعت الطيور تغني نشيداً محزناً يحاكي الندب فسالتها : « لماذا تندبين يا ايتها الطيور الجميلة؟» فاقترب مني عصفور ووقف على طرف الغصن وقال : « سوف يأتي ابن آدم حاملاً آلة جهنمية تفتك بنا فتك المنجل بالزرع فنحن نودع بعضنا بعضاً لاننا لا ندري من منا يتملص من القدر المحتوم . كيف لا نندب والموت يتبعنا اينما سرنا .»

طلعت الشمس من وراء الجبل وتوّجت رؤوس الاشجار باكاليل ذهبية وانا اسال ذاتي لماذا يهدم الانسان ما تبنيه الطبيعة؟

بين الكوخ والقصر

١

جاءَ المساءُ وشعشعت انوار الكهربائية في صرح الغني فوقف الخدام عَلَى الابواب بملابس مخملية وعَلَى صدورهم الازرار اللامعة ينتظرون مجيء المدعوين

صدحت الموسيقى بانغامها المطربة ونقاطر الاشراف والشريفات تجرهم الخيول المطهمة نحو ذلك القصر فدخلوا يرفلون بالملابس المزركشة ويجرون اذيال العزازة والفخر

قام الرجال ودعوا النساء للرقص فوقفن واخترن الاعزاءَ واصبحت تلك المقصورة روضةً تمرّ بهــا نسيمات الموسيقى فتتمايل ازاهرها تيهاً واعجاباً

انتصف الليل فمدت سفرة عليها كل ما عز من

الفاكهة وطاب من الالوان ودارت الكؤُوس عَلَى الجميع فلعبت بنت الكرمة في عقولهم حتى العبتهم

جاءَ الصباح وفرق شمل اولئك الاشراف الاغنياء بعد ان اضناهم السهر وسرقت عاقلتهم الخمرة واتعبهم الرقص واذبلهم القصف وذهب كلٌّ الى فراشه الناعم

٢

بعد ان غابت الشمس وقف رجل يرتدي اثواب الشغل امام باب كوخ حقير وقرع ففتح له ودخل وحيى مبتسماً ثم جلس بين صبية يصطلون بقرب النار . وبعد ردهة هيأت زوجتهُ العشاء فجلسوا جميعاً حول مائدة خشبية يلتهمون الطعام ثم قاموا وجلسوا بقرب مسرجة ترسل سهام اشعتها الصفراء الضعيفة الى كبد الظلمة

وبعد مرور الهزيع الاول من الليل قاموا بسكينة كلية واستسلموا لملك الرقاد

جاءَ الفجر فهبَّ ذلك الفقير من نومه واكل مع صغاره وزوجته قليلاً من الخبز والحليب ثم قبلهم وحمل عَلَى كتفهِ معولاً ضخماً وذهب الى الحقل ليسقيه من عرق جبينه ويستثمر ويطعم قواه اولئك الاغنياء الاقوياء الذين صرفوا ليلة امس بالقصف والخلاعة

طلعت الشمس من وراءِ الجبل وثقلت وطأة الحرّ عَلَى رأس ذلك الحارث واولئك الاغنياء ما برحوا خاضعين لسنة الكرى الثقيل في صروحهم الشاهقة

هذه مأساة الانسان المستتبة عَلَى مرسح الدهر وقد كثر المتفرجون المستحسنون وقلَّ من تأمل وعقل

~~~~~~
~~~~~~

طفــلان

***

وقف الامير عَلَى شرفة القصر ونادى الجموع المزدحمة في تلك الحديقة وقال : « ابشركم واهنيء البلاد ، فالاميرة قد وضعت غلاماً يحيي شرف عائلتي المجيدة ويكون لكم فخراً وملاذاً ووريثاً لما ابقتهُ اجدادــــي العظام . افرحوا وتهللوا فمستقبلكم صار مناطاً بسليل المعالي . »

فصاحت تلك الجموع وملأَت الفضاء باهازيج الفرح متاهلة بمن سوف يربى على مهد الترف ويشب عَلَى منصة الاعزاز ويصير بعد ذلك حاكماً مطلقاً برقاب العبــاد ، ضابطــاً بقوته اعنة الضعفاء ، حرًّا باستخدام اجسادهم واتلاف ارواحهم . من اجل ذلك كانوا يفرحون ويغنون

الاناشيد ويعاقرون كاسات السرور .

وبينما سكان تلك المدينة يمجدون القوي ويحتقرون ذواتهم ويتغنون باسم المستبد والملائكة تبكي عَلَى صغرهم كان في بيت حقير مهجور امرأَة مطروحة عَلَى سرير السقام تضم الى صدرها الملتهب طفلاً ملتفاً باقمطة بالية .

صبية كتبت لها الايام فقراً والفقر شقاءً فاهملت من بني الانسان . زوجة امات رفيقها الضعيف ظلمُ الامير القوي . وحيدة بعثت اليها الالهة في تلك الليلة رفيقاً صغيراً يكبل يديها دون العمل والارتزاق .

ولما سكنت جلبة الناس في الشوارع وضعت تلك المسكينة طفلها عَلَى حضنها ونظرت في عينيهِ اللامعتين وبكت بكاءً مرًّا ، كانها تريد ان تعمده بالدموع السخينة ، وقالت بصوت تتصدع له الصخور : « لماذا جئت يافلذة كبدي من عالم الارواح ؟ أَطمعاً بمشاطرتي الحياة المرة ؟ أَرحمة

بضعفي ؟ لماذا تركت الملائكة والفضاء الوسيع واتيت الى هذه الحياة الضيقة المملوءة شقاءً ومذلة ؟ ليس عندي ياوحيدي الا الدموع ، فهل تتغذى بها بدلاً من الحليب؟ وهل تلبس ذراعيّ العاريتين عوضاً عن النسيج ؟ صغار الحيوان ترعى الاعشاب وتبيت في اوكارها آمنةً ، وصغار الطير تلتقط البذور وتنام بين الاغصان مغبوطة ، وانت يا ولدي ليس لك الا تنهداتي وضعفي »

حينئذٍ ضمت الطفل الى صدرها بشدة كأنها تريد ان تجعل الجسدين جسداً واحداً ورفعت عينيها نحو العلاء وصرخت (ارفق بنا يارب)

ولما انقشعت الغيوم عن وجه القمر دخلت اشعته اللطيفة من نافذة ذلك البيت الحقير وانسكبت على جسدين هامدين .....

شعراء المهجر

***

لو تخيل الخليل ان الاوزان التي نظم عقودها واحكم اوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح وخيوطاً تعلق عليها اصداف الافكار لنثر تلك العقود وفصم عرى تلك الاوصال .

ولو تنبأ المتنبي وافترض الفارض ان ما كتباه سيصبح مورداً لافكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاعير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان وحطما الاقلام بايدي الاهمال .

ولو درت ارواح هوميروس وفرجيل واعمى المعرّة وملتون ان الشعر المتجسم من النفس المشابهة الله سيحط رحاله في منازل الاغنياء لبعدت تلك الارواح عن ارضنا

واختفت وراء السيارات .

ما انا من المتعنتين ، لكن يعزُّ عليَّ ان ارى لغة الارواح تتناقلها السنة الاغبياء ، وكوثر الالهة يسيل عَلَى اقلام المدَّعين ، ولست منفرداً في وهدة الاستياء بل رأيتني واحداً من كثيرين نظروا الضفدع ينتفخ تمثلاً بالجاموس .

الشعر ياقوم روح مقدسة متجسمة من ابتسامة تحيي القلب او تنهدة تسرق من العين مدامعها . اشباح مسكنها النفس وغذاؤُها القلب ومشربها العواطف ، وان جاءَ الشعر عَلَى غير هذه الصور فهو كمسيح كذاب نبذه اوفى .

فيا الهة الشعر — يا ادانو — اغفري ذنوب الالى يقتربون منك بثرثرة كلامهم ولا يعبدونك بشرف انفسهم وتخيلات افكارهم .

ويا ارواح الشعراء الناظرة الينا من اعالي عالم الخلود ليس لنا عذر لتقدمنا من مذابح زينتموها بلآلئ افكاركم

وجواهر انفسكم سوى ان عصرنا هذا قد كثرت فيهِ قلقلة الحديد وضجيج المعامل فجاءَ شعرنا ثقيلاً ضخماً كالقطارات ومزعجاً كصفير البخار .

وانتم ايها الشعراء الحقيقيون سامحونا فنحن من العالم الجديد نركض وراء الماديات فالشعر عندنا صار مادة تتناقلها الايدي ولا تدري بها النفوس .



تحت الشمس

***

«رايت كل الاعمال التي عملت تحت الشمس»
«فاذا الكل باطل وقبض الريح»
(الجامعة)

يا روح سليمان السابحة في فضاء عالم الارواح ، يامن خلعت ثوب المادة الذي نحن نرتديه الآن ، لقد تركت وراءك هذا الكلام المنبثق من الضعف والقنوط فولد ضعفاً وقنوطاً في اسرى الاجسام .

انت تعلمين الان ان في هذه الحياة معنى لا يخفيه الموت، ولكن أنىّ للبشر تلك المعرفة التي لا تدرك الا بعد انعتاق النفس من ربقة التراب ؟

انت تعلمين الآن ان الحياة ليست كقبض الريح ،
وان ليس تحت الشمس شيء باطل ، بل كل شيء كان
وسيبقى سائراً نحو الحقيقة ، ولكن نحن المساكين قد تشبثنا
باقوالك وتدبرناها وما برحنا نظنهـا حكمة باهرة ، وهي
— وانت تعلمين — ظلمة تضيع العاقلة وتخفي الامل .

انت تعلمين الان ان للحماقة والشر والظلم اسباباً جميلة ،
ونحن لا نرى جمالاً الا بظواهر الحكمة ونتاج الفضيلة
وثمار العدل .

انت تعلمين ان الحزن والفقر يطهران القلب البشري ،
وعاقلتنا القاصرة لا ترى شيئاً حرياً بالوجود الا اليسر
والفرح .

انت تعلمين الان ان النفس سائرة نحو النور قهراً من
عقبات العمر ، ونحن ما برحنا نردد كلامك الذي يدل على
ان الانسان ليس الا العوبة في يد القوة غير المعروفة .

انتِ ندمتِ عَلَى بثك روحاً يضعف محبة الحيـاة الحاضرة ويميت الشغف بالحياة الاتية ، ونحن لم نزل مصرين عَلَى حفظ اقوالك .

يا روح سليمان الساكنة في عالم الخلود ، اوحي الى محبي الحكمة ألاَّ يسلكوا سبل القنوط والجحود ، فقد يكون ذلك كفارة عن خطإٍ غير مقصود



نظرة الى الآتي

***

من وراء جدران الحاضر سمعت تسابيح الانسانية ·
سمعت اصوات الاجراس تهز دقائق الاثير معلنة بدءَ الصلاة
في معبد الجمال — اجراس سبكتها القوة من معدن الشواعر
ورفعتها فوق هيكلها المقدس — القلب البشري

من وراء المستقبل رأَيت الجموع ساجدة عَلَى صدر
الطبيعة ، متجهة نحو المشرق، منتظرة فيض نور الصباح —
صباح الحقيقة

رأَيت المدينة قد اندثرت ولم يبقَ من آثارها غير
طلل بال يخبر باندحار الظلمة امام النور

رأَيت الشيوخ جالسين بظل اشجار الحور والصفصاف

وقد جلس الصبيان حولهم يسمعون اخبار الايام

رأَيت الفتيان يوقعون عَلَى القيثارة وينفخون في الناي والصبايا مسدولات الشعر يرقصن حولهم تحت اغصان الياسمين والفل.

رأَيت الكهول يحصدون الزرع والنساء يحملنَ الاغمار ويترنمنَ باناشيد اوحتها الغبطة والمسرة

رأَيت المرأَة مستعيضة عن الملابس المشوهة باكليل من الزنبق ومنطقة من اوراق الاشجار الغضة

رأَيت الالفة مستحكمة بين الانسان والمخلوقات، فجماعات الطير والفراش تقترب منهُ آمنة وسرَب الغزلان تنثني نحو الغدير واثقة. نظرت فلم ارَ فقراً ولا ما يزيد عن الكفاف، بل الفيت الاخاء والمساواة، ولم ارَ طبيباً، اذ كلٌّ غدا طبيب ذاته بحكم المعرفة والاختبار، ولم ارَ كاهناً، لان الضمير اصبح الكاهن الاعظم، ولم ارَ محامياً، لان الطبيعة

قامت بينهم مقام محكمة تسجل معاهدات الالفة والوئام

رأيت الانسان قد علم انهُ حجر زاوية المخلوقات، فترفع عن الصغائر ، وتعالى عن الدنايا ، وكشف عن بصيرة النفس مناديل الالتباس، فاصبحت تقرأ ما تكتبهُ الغيوم عَلَى وجه السماء ، وما ينمقهُ النسيم عَلَى صفحات الماء ، وتفقه كنه انفاس الازهار ، وتعرف معنى اغاني الشحارير والبلابل

من وراء جدران الحاضر — عَلَى مرسح الاجيال الاتية رأيت الجمال عروساً والنفس عروسة والحياة كلها ليلة القدر ·



ملكة الخيال

***

بلغتُ خرائب تدمر وقد انهكني المسير ، فاستلقيت عَلَى اعشاب نبتت بين اعمدة سلّها الدهر واناخها الى الحضيض فبانت كانها اشلاء حرب هائلة . وصرت اتأمل بعظائم اجلّها وهي مهدومة منقوضة عن صغائر قائمة عامرة

ولما جاء الليل وتشاركت المخلوقات المتنابذة بارتداء ثوب السكينة شعرتُ بان في الاثير المحيط بي سيالاً يضارع البخور عطراً ويعادل الخمر فعلاً ، فصرت اجرعه محكوماً واحس باياد خفية تتسامى عاقلتي وتثقل جفني وتحل نفسي من سلاسلها . ثم مادت الارض واهتز الفضاء ، فوثبت مدفوعاً بقوة سحرية ، فوجدتني في رياض لم يتخيلها

بشر قط مصحوباً بجوق من العذارى لم يرتدين بغير الجمال، يمشين حولي ولا تلمس ارجلهنَّ الاعشاب وينشدن تسبيحة منسوجة من احلام الحب ويضربنَ عَلَى قيثارات من العاج ذات اوتار ذهبية . ولما وصلت الى منفرج قام في وسطهِ عرش مرصع بالجواهر بين مسارح تنسكب منها انوار بلون قوس القزح وقفت العذارى عَلَى اليمين واليسار ورفعن اصواتهن عن ذي قبل ونظرن الى جهة تنبعث منها رائحة المر واللبان، فاذا بمليكة ظهرت من بين الاغصان الزاهرة ومشت ببطء نحو العرش واستوت عليهِ فهبط اذ ذاك سرب حمام كالثلج بياضاً واستقر حول اقدامها بشكل الهلال

صار هذا والعذارى يغنين مجد المليكة سوراً ، والبخور يتصاعد لتكر بها اعمدة ، وانا واقف ارى ما لم تره عين انسان، واسمع ما لم تعه اذن بشري

حينئذٍ اشارت المليكة بيدها فسكنت كل حركة ثم

قالت وصوتها يهزّ نفسي مثلما تفعل يد الموقع باوتار عوده ويؤثر بمجموع ذاك المحيط السحري كانّ للاشياء اذاناً وافئدة : « دعوتك ايها الانسيُّ وانا ربة مسارح الخيال وحبوتك المثول امامي وانا مليكة غابة الاحلام فاسمع وصاياي ونادِ بها امام البشر . قل ان مدينة الخيال عرس يخفر بابه مارد جبار فلن يدخله الا من لبس ثياب العرس . قل : هي جنة يحرسها ملاك المحبة فلا ينظرها سوى من كان عَلَى جبهتهِ وسم الحب ، هي حقل تصوُّرات انهاره طيبة كالخمر واطياره تسبح كالملائكة وازاهره فائحة العبير فلا يدوسهُ غير ابن الاحلام . خبر الانس باني وهبتهم كاساً يفعمهُ السرور فهرقوه بجهلهم فجاء ملاك الظلمة فملأه من عصير الحزن فجرعوه صرفاً وسكروا . قل لم يحسن الضرب عَلَى قيثارة الحياة غير الذين لمست اناملهم وشاحي ونظرت اعينهم عرشي ، فاشعيا نظم الحكمة عقوداً باسلاك محبتي ،

ويوحنا روى رؤياه بلساني، ولم يسلك دانتي مراتع الارواح بغير ادلتي ، فانا مجاز يعانق الحقيقة ، وحقيقة تبين وحدانية النفس ، وشاهد يزكي اعمال الالهة . قل : ان للفكرة وطناً اسمى من عالم المرئيات لا تكدر سماءه غيوم السرور ، وان للتخيلات رسوماً كائنة في سماء الالهة تنعكس عَلَى مرآة النفس ليعم رجاؤها بما سيكون بعد انعتاقها من الحياة الدنيا»

وجذبتني مليكة الخيال نحوها بنظرة سحرية وقبلت شفتيّ الملتهبتين وقالت : «قل ومن لا يصرف الايام عَلَى مرسح الاحلام كان عبد الايام »

عندئذٍ تصاعدت اصوات العذارى وارتفعت اعمدة البخور وحجبت الرؤيا . ثم مادت الارض واهتز الفضاء فوجدتني بين تلك الخرائب المحزنة وقد ابتسم الفجر وبين لساني وشفتيّ هذه الكلمات «ومن لا يصرف الايام عَلَى مرسح الاحلام كان عبد الايام »

يا لائمي

***

دعني يا لائمي ووحدتي. استحلفك بحب يضم نفسك بجمال الرفيقة ويوثق قلبك بحنو الام ويربط فؤادك بعواطف الابن ان تتركني وحالي

خلني وشأني واحلامي واصبر الى الغد فالغد يقضي عليّ بما يشاء

محضتني النصح والنصح طيف يسير بالنفس الى مرتع الحيرة ويقودها الى حيث الحياة جامدة كالتراب

لي قلبٌ صغير اريد ان اخرجه من ظلمة صدري واحمله على كفي متفحصاً اعماقه ومستحكياً اسراره، فلا تترصده يا لائمي بنبال مذاهبك مسبباً خوفه واختفاءه ضمن قفص

الضلوع قبل ان يسكب دماء خفاياه ويقوم بفرضٍ عقدتهُ الالهة عندما ابتدعته من الجمال والحب

هنا قد ظلعت الشمس وغرد الهزار والبلبل وتصاعدت ارواح الآس والمنثور وانا اريد الانعتاق من لحف الكرى لاسير مع الحملان البيضاء ، فلا تُعقني يا لائمي ولا تخفني بأسد الغاب وصلّ الوادي، لان نفسي لا تعرف الجزع ولا تنذر بالسوء قبل مجيئه

دعني يالائمي ولا تعظني، لان المصائب فتحت بصيرتي، والدموع جلت بصري ، والحزن علمني لغة القلوب

اعتزل ذكر المحرّمات ، فلي من ضميري محكمة تقضي بالعدل عليَّ وتقيني العقاب ان كنت ذا برارة ، وتحرمني الثواب ان كنت من المجرمين

ها قد سار موكب الحب فمشى الجمال رافعاً اعلامه وسارت الشبيبة نافخة ابواق الفرح فلا تردعني يالائمي ،

بل دعني اسر، فالطريق مفروشة بالورد والرياحين،والهواء قد عطرته مجامر المسك

اعفني من حكاية المال وقصص المجد، لان نفسي غنية باكتفائها ومشغولة بمجد الالهة

أَعفني من ما تي السياسة واخبار السلطة،لان الارض كلها وطني وجميع البشر مواطنيّ .



مناجـــاة

***

اين انتِ الآن يا جميلتي؟ أفي تلك الجنة الصغيرة تسقين الازهار التي تحبك محبة الاطفال ثديَ امها، ام في خدرك حيث اقمتِ للطهر مذبحاً وقفت عليهِ روحي وحشاشتي، ام بين كتبك تستزيدين من حكمة البشر وانتِ غنية بحكمة الالهة؟

اين انتِ يا رفيقة نفسي؟ أفي الهيكل تصلين من اجلي، ام في الحقل تناجين الطبيعة مرتع اعجابك واحلامك، ام بين اكواخ المساكين تعزين منكسرات القلوب بحلاوة نفسك وتملأين اياديهن باحسانك؟

انت في كل مكان، لانك من روح الله، وفي كل زمان،

لانك اقوى من الدهر

هل تذكرين ليالي جمعتنا وشعاع نفسك يحيط بنـا كالهالة وملائكة الحب تطوف حولنا مترنمة باعمال الروح ، وتذكرين ايام جلسنا بظل الاغصان وهي مخيمة علينا كأنها تريد ان تحجبنا عن البشر مثلما تحجب الضلوع اسرار القلب المقدسة ؟ هل تذكرين ممرّات ومنحدرات مشينـا عليها واصابعك محبوكة باصابعي احنباك ضفائرك وقداسندنا رأسينا برأسينا كأننا نحتمي منا بنا ٠٠؟ وهل تذكرين ساعة جئتك مودعاً فعانقتني ثم قبلتني قبلة مريمية علمت منها بان الشفاه اذا انضمت جاءت باسرار علوية لا يعرفها اللسان ـ قبلة كانت توطئة لتنهيدة مزدوجة حاكت نفساً نفخه «يهوه» في الطين فصار انساناً . تلك تنهيدة سبقتنا الى عالم الارواح معلنة مجد نفسينا وهناك ستبقى حتى نجتمع بها الى الابد ٠٠ ثم قبلتني وقبلتني وقبلتني وقلتِ والدمع يساعدك : « ان

للاجسام اغراضاً مجهولة ، فهي تفترق لشؤون عالمية وتتباعد لمآرب دنيوية ، اما الارواح فتظل في قبضة الحب مستأمنة حتى يجيء الموت ويسير بها الى الله . اذهب ياحبيبي . لقد انتدبتك الحياة فاطعها ، فهي حسناء تسقي مطيعيها من كوثر اللذة كؤوساً مفعمة ، اما انا فلي من حبك عريس ملازم ، ومن ذكراك عرس طويل مبارك »

اين انتِ الآن يا رفيقتي ؟ هل انتِ ساهرة في سكينة الليل نسيماً احمله دقات قلبي وخفايا جوارحي كلما هب نحوك ؟ او انت ناظرة رسم فتاك ؟ ذاك رسم لم يعد ينطبق علَى مرسومه ، فالحزن قد القى خياله علَى جبهة كانت بالامس منفرجة بقربك ، والنواح اذبل اجفاناً كانت مكحولة بجمالك ، والوجد جفف ثغراً كان مرطباً بقبلاتك

اين انت يا حبيبتي ؟ هل انت سامعة من وراء الابحار ندائي وانتحابي ، وناظرة ضعفي ومذلتي ، وعالمة بصبري

وتجلدي ؟ او ليست في الهواء ارواح تنقل انفاس محتضر متوجع؟ او لم تكن بين النفوس اسلاك خفية تحمل شكوى محبٍّ دنف ؟

اين انتِ يا حياتي ؟ فقد احتضنتني الظلمة وغلبني الاسى . ابتسمي في الهواء فانتعش . تنفسي في الاثير فاحيى

اين انتِ يا حبيبتي اين انتِ ؟

آه ما اعظم الحب وما اصغرني !



المجــرم

***

على قارعة الطريق قعد شابٌ مستعطياً . فتى قوي الجسم اضعفهُ الجوع فجلس في منعطف الشارع مادًّا يده نحو العابرين متسولاً مستغيثــاً بالمحسنين مردداً آيات انكساره شاكياً آلام جوعه

خيم الليل وقد يبست شفتاه وكلَّ لسانه ولم تزل يده فارغة مثل جوفه . فقــام اذ ذاك وذهب الى خارج المدينة وجلس بين الاشجــار وبكى بكاءً مرًّا . ثم رفع نحو السماء عينيه يغشاهما الدمع وقال والجوع يلقنه : « يارب قد ذهبت الى الموسر اطلب عملاً ، فطردت لرثاثة اثوابي . وطرقت باب المدرسة ، فمنعت لفراغ يدي . ورمت الاستخدام

ولو بكفاف يومي ، فابعدت لسوء طالعي . واخيراً سعيت متسولاً ، فرآني عبادك يارب وقالوا هذا قوي نشيط والاحسان لا يجوز عَلَى ابن التواني والكسل . قد ولدتني امي بارادتك يارب ، وانا كائن الان بكيانك ، فلماذا يمنع الناس الخبز عني وانا طالب باسمك ؟

في تلك الدقيقة تغيرت سحنة الرجل اليائس . فانتصب وقد لمعت عيناه كالشهب ثم اقتضب من الاغصان اليابسة نبوتاً ضخماً واشار بهِ نحو المدينة وصرخ قائلاً : « طلبت الحياة بعرق الجبين، فلم اجدها ، فسوف احصل عليها بقوة ساعدي . وسالت الخبز باسم المحبة ، فلم يسمعني الانسان ، فساطلبهُ باسم الشر واستزيد منهُ . . . . »

مرّت الاعوام والشاب يقطع الاعناق من اجل الحصول عَلَى العقود ، ويهدم هياكل الارواح ان تصدت لمطامعه . فنمت ثروته وعم بطشه وصار محبوباً من لصوص

القوم ومخيفاً لعقلائهم. ثم انتدبه الامير وكيلاً عنهُ في تلك المدينة شأن الامراء بانتقاء ممثليهم

كذا يبتدع الانسان من المسكين سفاحاً باستمساكه ،
ومن ابن السلام قاتلاً بقساوته



الرفيقـة

***

اول نظرة

هي الدقيقة الفاصلة بين نشوة الحياة ويقظتها . هي الشعلة الاولى التي تنير خلايا النفس . هي اول رنة سحرية على اول وتر من قيثارة القلب البشري . هي آونة قصيرة تعيد على مسمع النفس اخبار الايام الغابرة، وتكشف لبصرها اعمال الليالي ، وتبين لبصيرتها اعمال الوجدان في هذا العالم ، وتبيح سرّ الخلود في العالم الآتي . هي نواة تطرحها عشتروت (١) من العلاء ، فتلقيها العيون في حقل القلب

(١) عشتروت الهة الحب والجمال عند قدماء سكان فينيقيا ولبنان وهي التي يدعوها اليونان افراديتي والرومان فينس

فتستنبتها العواطف ثم تستثمرها النفس . اول نظرة من الرفيقة تشابه الروح الذي كان يرف عَلَى وجه الغمر ومنه انبثقت السماء والارض . اول نظرة من شريكة الحياة تحاكي قول الله « كن »

اول قبلة

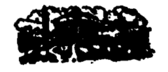
هي الرشفة الاولى من كأس ملأتها الالهة من كوثر الحب . هي الحدّ بين شكٍ يراود القلب فيحزنهُ ويقينٍ يفعمه فيغبطه . هي مطلع قصيدة الحياة الروحية والفصل الاول من رواية الانسان المعنوي . هي عروة توثق غرابة الماضي ببهاء الاتي وتجمع بين سكينة الشواعر واغانيها . هي كلمة تقولها الشفاه الاربع معلنة صيرورة القلب عرشاً ، والحب مليكاً ، والوفاء تاجاً . هي ملامسة لطيفة تحاكي مرور انامل النسيم عَلَى ثغر زهرة الورد حاملة معها تنهداً مستطيلاً لذيذاً وانة خفيفة عذبة . هي بدء اهتزازات

سحرية تفصل المحبين عن عالم المقاييس والكمية الى عالم الوحي والاحلام . هي ضمّ زهرة الشقيق الى زهرة الجلنار ومزج انفاسهما لتوليد نفس ثالث .. واذا كانت النظرة الاولى تشابه نواة القتها الهة الحب في حقل القلب البشري ، فالقبلة الاولى تحاكي اول زهرة في اطراف اول غصن في شجرة الحياة

القران

هنا يبتدئ الحب ان ينظم نثر الحياة شعراً وينشيء من معاني العمر سوراً ترتلها الايام وتنغمها الليالي . هنا يزيح الشوق ستائر الاشكال عن معميات السنين الماضية ويؤلف من نتف اللذات سعادة لا يفوقها غير سعادة النفس عندما تعانق ربها . القران هو اتحاد الوهيتين عَلَى ايجاد الوهية ثالثة عَلَى الارض . هو تكاتف اثنين قويين بحبهما لمقاومة دهر ضعيف يبغضه . هو تمازج خمرة صفراء

برحيق قرمزي لتوليد شراب برتقاني (١) يحاكي لون الشفق عند مجيء الفجر . هو تنافر روحين من التنافر واتحاد نفسين مع الاتحاد . هو حلقة ذهبية من سلسلة ، اولها نظرة ، واخرها اللانهاية . هو انهمال غيث نقي من سماء طاهرة نحو طبيعة مقدسة لاستخراج قوى حقول مباركة ..
فاذا كانت النظرة الاولى من وجه المحبوبة مثل نواة القتها المحبة في حقل القلب، والقبلة الاولى من شفتيها تشابه اول زهرة في غصن الحياة، فالقران بها يحاكي اول ثمرة من اول زهرة من تلك النواة .



---

(١) اللون البرتقاني يتولد كياويا من الاحمر والاصفر

بيت السعادة

***

تعب قلبي في داخلي فودعني وذهب الى بيت السعادة، ولما بلغ ذلك الحرم الذي قدسته النفس وقف حائراً، لانهُ لم يرَ هناك ما طالما توهمهُ. لم يرَ قوةً، ولا مالاً، لا ولا سلطة. لم يرَ غير فتى الجمال ورفيقته ابنة المحبة وطفلتهما الحكمة

وخاطب قلبي ابنة المحبة قائلاً: «اين القناعة ايتها المحبة، فقد سمعت انها تشاطركم سكنى هذا المكان؟» قالت: «ذهبت القناعة تكرز في المدينة حيث المطامع، فنحن لا نحتاجها. السعادة لا تبتغي قناعة. انما السعادة شوق يعانقه الوصال، والقناعة سلوٌّ يساوره النسيان. النفس الخالدة لا تقنع، لانها تروم الكمال، والكمال هو اللانهاية».

وخاطب قلبي فتى الجمال قائلاً : « ارني سرّ المرأة ايها الجمال وانرني لانك معرفة » فقال : « هي انت ايها القلب البشري وكيفما كنت كانت . هي انا واينما حللت حلت . هي كالدين اذا لم يحرّفه الجاهلون ، وكالبدر اذا لم تحجبهُ الغيوم ، وكالنسيم اذا لم تتعلق باذياله انفاس الفساد »

واقترب قلبي من الحكمة ابنة المحبة والجمال وقال : « اعطني حكمة احملها الى البشر » فاجابت : « قل هي السعادة تبتدئ في قدس اقداس النفس ولا تأتي من الخارج »



مدينة الماضي

***

وقفت بي الحياة عَلَى سفح جبل الشباب واومأت الى الوراء . فنظرتُ، فاذا بمدينة غريبة الشكل والرسوم متربعة في صدر سهول تتموج فيها الخيالات والابخرة المتلونة متوشحة بقناع ضباب لطيف يكاد يحجبها

قلت ماهذه ايتها الحياة؟ قالت: هي مدينة الماضي فتأمل!

فتأملت ورأيت —

معاهد اعمال جالسة كالجبابرة تحت اجنحة النوم . مساجد اقوال تحوم حولها ارواح صارخة صراخ القنوط، مترنمة ترنيمة الامل . هيا كل اديان اقامها اليقين ثم هدمها الشك . مآذن افكار مرتفعة نحو العلو كأنها ايدي المتسولين .

شوارع اميال منبسطة انبساط النهر بين الربى . مخازن اسرار حرسها الكتمان فسرقتها لصوص الاستعلام . ابراج اقدام بنتها الشجاعة فثلتها المخاوف . صروح احلام زينتها الليالي وخربتها اليقظة . اكواخ صغار سكنها الضعف ، وجوامع وحدة قام فيها نكران الذات . نوادي معارف انارها العقل فاظلمها الجهل . حانات محبة سكر بها العشاق فاستهزأ بهم الخلو . مراسح اعمار مثلت عليها الحياة رواياتها ثم جاءَ الموت وختم مأساته

تلك مدينة الماضي فهي بعيدة قريبة — منظورة محجوبة .

ومشت امامي الحياة وقالت : اتبعني فقد طال بنا الوقوف . قلت: الى اين ايتها الحياة ؟ قالت : الى مدينة المستقبل. قلت: رفقاً فقد انهكني المسير وكلمت اقدامي الصخور وهدّت قواي العقبات. قالت: سر فالوقوف جبانة والنظر الى مدينة الماضي جهالة

اللقــاء

***

عندما اكمل الليل تميق ثوب السماء بجواهر النجوم تصاعدت من واديـــ النيل حورية محفوفة بأجنحة غير منظورة . وجلست عَلَى عرش من الغيوم مرتفع فوق بحر الروم مفضض من اشعة القمر ، فمرَّ من امامها جوق ارواح سابحة في الفضاء صارخة : «قدوس ،قدوس ،قدوس ابنة مصر مجدها ملء كل الارض »

وتصاعد من اعالي فم ميزاب المحيط بغابة الارز طيف فتىً مكتنفاً باياي السار وفيم وجلس عَلَى العرش بقرب الحورية فعادت الارواح ومرَّت من امامها هاتفةً :

« قدوس ،قدوس ،قدوس فتى لبنان مجده ملء كل الدهور »

ولما أَخذ المحب يد حبيبته ونظر الى عينيهـا حملت الارياح والامواج هذه المناجاة الى جميع الاقطار :

„ ما اكمل بهاءكِ يا ابنة ايسس وما اعظم حبي لك"

„ ما اجملك بين الفتيان يا ابن عشتروت وما اكثر شوقي اليك "

„ محبتي نظير اهرامك فلا تهدمها الاجيال ياحبيبتي "

„ محبتي تحاكي أَرزكَ فلن تغلبها العناصر ياحبيبي "

„ حكماء الامم يأُتون من المشرق والمغرب ليستحكوا حكمتك ويستفسروا رموزكِ يا حبيبتي "

„ عظماء الارض يجيئون من الممالك ليسكروا من رحيق جمالك وسحر معانيك يا حبيبي "

„ ان راحتيك منبت خيرات غزيرة تمـلأُ الاهراء ياحبيبتي "

„ ان ذراعيك منبع المياه العذبة، وانفاسك نسيمات

منعشة يا حبيبي »

قصور النيل وهيا كله تذيع مجدك وابو الهول يحدث بعظمتك يا حبيبتي »

« الارز علَى صدرك وسام شرف اثيل، والابراج حولك تروي بطشك واقتدارك يا حبيبي »

« آه ما أُميلح محبتك ومـا احيلى الامل المناط بارتقائك يا حبيبتي »

« آه ما اكرمك خليلاً ، واوفاك حليلاً ، وما اجمل هداياك وأنفس عطاياك . بعثت اليَّ بالفتيان فكانوا يقظة بعد نوم عميق . أَتحفتني (بالفارس) فغلب ضعف قومي. وحبوتني (بالاديب) فانهضهم (وبالنجيب) فاثملهم . . .

« بعثت اليكِ بالبذور فصيرتها ازهاراً ، وبالانصاب فجعلتها اشجاراً ، فانتِ حقل بكر يحيي الورد والسوسن ويرفع السرو والارز . . . .

„ارى بعينيك حزنًا يا حبيبي — أَ تحزن وانت بقربي ؟"

„لي ابناء رحلوا الى ما وراء البحار وخلفوني حليف بكاء واليف شوقٍ "

„ليت لي ما يشابه حزنك وتنصرف عني مخاوفي يا حبيبي "

„أَ تخافين يا ابنة النيل وأَنتِ عزيزة الامم ؟ "

„أَخاف من طاغية تقترب مني بحلاوة روغها وتمتلك أَعنتي بقوة ساعديها ".

«ان حياة الامم ياحبيبتي مثل حياة الافراد . حياة يؤاخيها الامل، ويقارنها الخوف، وتحف بها الاماني، ويرمقها القنوط»

وتعانق الحبيبان وشربا من كؤوس القبل رحيقاً عاطراً ، فمرت اجواق الارواح منشدة : قدوس قدوس قدوس المحبة مجدها ملء السماء والارض .

مخبآت الصدور

***

في صرح فخيم واقف تحت جنح الليل وقوف الحياة بين ستائر الموت جلست صبية بقرب منضدة عاجية تسند رأسها الجميل بيدها، مثلما تتكئ زنبقة ذابلة على اوراقها وتنظر الى ما حولها نظرات سجين يائس يريد ان يخرق بعينيه جدران حبسه ليرى الحياة السائرة في موكب الحرية

مرّت الساعات مرور اشباح الظلمة، وتلك الصبية مستأنسة بدموعها، مستأمنة بانفرادها ولوعتها، حتى اذا ما اشتدت على قلبها وطأة عواطفها، وامتلكت شواعرها خزائن اسرارها تناولت قلماً واخذت تمزج على صفحات الورق قطرات الحبر بدموعها وتجمع بين الكلام ومكنونات

نفسها . وهاك ما كتبت :

« ايتها الاخت المحبوبة !

عندما يضيق القلب باسراره ، وتتقرح الاجفان من حرارة دموعها ، وتكاد الضلوع تتمزّق من نمو مخبآت الصدور لا يجد المرء غير الكلام والشكوى . فالحزين يا صديقتي يستعذب الشكوى . يجد المحب تعزية بالتشبب ، والمظلوم لذة بالاسترحام .. فانا اكتب اليكِ الان لانني اصبحت كشاعر يرى جمال الاشياء فينظم تأثيرات ذلك الجمال محكوماً بقوة الوهيته . او كطفل الفقير الجائع يستغيث مدفوعاً بمرارة جوعه غير راحم فاقة امه وانكسارها —

اسمعي قصتي الموجعة يا اختي وابكي من اجلي ، لان البكاء كالصلاة، ودموع الشفقه كالاحسان لا تذهب سدى، لانها متصاعدة من اعماق نفس حية شاعرة ... شاء والدي وجمع بالقران بيني وبين رجل شريف غني شأن

كل والد غني شريف يروم تعزيز المال بالمال مخافة الفقر وضم الشرف الى الشرف هرباً من ذل الايام . فكنت مع عواطفي واحلامي ضحية عَلَى مذبح ذهب احتقره وشرف موروث اكرهه، وفريسة ترتعد بين اظافر المادة التي اذا لم تكن خادمة مطيعة للروح كانت اقسى من الموت وامرّ من الهاوية. انا اعتبر بعلي، لانهُ كريم الخلق، شريف القلب، يجهد النفس في سبيل سعادتي، ويبذل المال لرضاي، لكنني وجدت تأثير هذه الاشياء كلها لا يساوي دقيقة محبة حقيقية مقدسة . تلك المحبة التي تستصغر كل شيء وتبقى عظيمة . . لا تسخري بي يا رفيقتي، فانا الان اعلم الناس بحاجات قلب المرأة —هذا القلب الخفوق— هذا الطائر السابح في فضاء المحبة— هذا الاناء الطافح من خمرة الدهور المعدّة لمراشف الارواح— هذا الكتاب المطبوعة فيه فصول السعادة والشقاء، واللذة والألم، والمسرّة والاحزان، فلا يقرأه

الا الرفيق الحقيقي نصف المرأة المخلوق لها منذ الازل والى
الابد ... نعم صرت ادرى النساء باغراض النفس واميال
القلب عندما وجدت ان خيول بعلي المطهمة ومركباته
البديعة وخزائنه الطافحة وشرفه الرفيع لا تساوي نظرة
واحدة من عيون ذلك الفتى الفقير الذي جاءَ هذه الحياة
من اجلي وجئت من اجله، ذلك الصابر عَلَى مضض البلوى
وذل التفريق ، ذلك المظلوم عفواً بارادة والديَّ ،
والمسجون بلا اثم في ظلمة العمر .. اياكِ ياصديقتي محاولة
تعزيتي، لان لي من مصائبي معزِّياً هو ادراكي قوة حبي،
ومعرفتي شرف شوقي وحنيني ، فانا انظر الآن من وراءَ
الدموع فأرى المنية تقترب مني يوماً فيوماً لتقودني الى
حيث انتظر رفيق نفسي والتقي بهِ واعانقهُ عناقاً طويلاً
مقدساً . ولا تلوميني فانا قائمة بواجبات الزوجة الامينة ،
خاضعة لاحكام الشرائع البشرية بتجلد وهدوء ، اكرم بعلي

بعاقلتي، واعتبره بقلبي، واجلهُ بنفسي، ولا يمكنني ان اهبه كليتي، لان الله اعطاها الى حبيبي قبل معرفتي حبيبي. شاءت السماء لحكمة خفية ان اصرف العمر مع رجل خلقت لغيره فانا انفق هذا العمر حسب مشيئة السماء بسكينة، ولكن اذا ما انفتحت ابواب الابدية التحمت بنصف نفسي الجميل ونظرت الى الماضي — وذاك الماضي هو هذا الان — نظرة الربيع الى الشتاء. وتأملت في حياتي هذه، مثلما يتامل في العقبات من بلغ قمة الجبل»

هنا وقفت تلك الصبية عن الكتابة. وحجبت وجهها بيديها. وبكت بكاءً مرًا، كأن نفسها الكبيرة ابت ان تسلم اقدس اسرارها الى الورق، فاعطتها الى دموع سخية تجف بسرعة وتمتزج بالاثير اللطيف موطن انفاس المحبين وارواح الازهار. وبعد هنيهة اخذت القلم وكتبت — «هل تذكرين يا صديقتي ذلك الفتى؟ هل تذكرين تلك الاشعة المنبعثة

من عينيه وتلك الاحزان المرسومة عَلَى جبينه ؟ هل تذكرين ابتسامه المشابه دموع الثكلى ؟ هل تذكرين صوته المحاكي صدى الوادي البعيد ؟ هل تذكرينه اذ كان يتأمل في الاشياء بنظرات طويلة هادئة ، ثم يتكلم عنها بغرابة ، ثم يحني رأسه ويتنهد كأنهُ يخاف ان يشف حديثه عن خفايا قلبه الكبير ؟ وهل تذكرين احلامه وعقائده ؟ هل تذكرين كل هذه الاشياء في فتىً يحسبهُ البشر من البشر ويحتقره والدي لانهُ اسمى من المطامع الترابية واشرف من ان يرث الشرف عن الجدود ؟ إِي يا اختي انتِ تعلمين انني شهيدة صغائر هذا العالم وضحية الغباوة وترحمين اختاً ساهرة في سكينة الليل المخيف لتكشف لكِ ستائر صدرها عن اسرار قلبها. انتِ ترحمين لان الحب قد زار قلبك »

جاء الصباح فقامت تلك الصبية واستسلمت للكرى علها تجد فيهِ احلاماً الطف من احلام اليقظة . . . .

القوّة العمياء

***

جاء الربيع وتكلمت الطبيعة بالسنة السواقي ففرّحت القلب · وابتسمت بشفاه الازهار فاسعدت النفس · ثم غضبت ودكت المدينة الجميلة فانست الانسان عذوبة كلماتها ورقة ابتساماتها · قوّةٌ عمياء مخيفة نقضت بساعة ما اقامتهُ الاجيال · موتٌ ظلوم قبض باظافره المحددة على الاعناق فسحقها بقساوة · نارٌ آكلة التهمت الارزاق والاعمار · ليلٌ قاتم اخفى جمال الحياة تحت لحف الرماد · عناصر هائلة هبت من مرابضها وقاتلت الانسان الضعيف وخربت مساكنهُ وذرت بسرعة ما جمعهُ بالتأني · زلزالٌ عنيف حبلت بهِ الارض فتمخضت متوجعةً ولم تلد غير

الخراب والشقاء

جرى كل ذلك والنفس الحزينة ناظرة من بعيد تتأمل وتتألم . تتامل بمقدرة الانسان المحدودة تجاه القوى غير العاقلة ، وتتالم مع المصابين الهاربين من النار والدمار . تتامل باعداء ابن آدم الكامنة له تحت اطباق الثرى وبين دقائق الاثير ، وتتالم مع الوالدات النائحات والاطفال الجائعين . تتامل بقساوة المادة واستصغارها الحياة العزيزة ، وتتالم مع الذين رقدوا بالامس مستأمنين في منازلهم فاصبحوا اليوم واقفين عن بعد يرثون المدينة الجميلة بغصات مؤلمة وعبرات مرّة . تتامل بكيفية انقلاب الامل يأساً ، والفرح حزناً ، والراحة عذاباً ، وتتالم مع قلوب ترتعد بين مخالب اليأس والحزن والعذاب

كذا وقفت النفس بين التامل والتالم تنقاد تارةً الى الشك بعدالة النواميس الرابطة القوات بعضها دون الاخر ،

وتعود طوراً فتهمس في آذان السكينة قائلةً : انَّ من وراء الكائنات حكمة سرمدية تبتدع من كوارث ونوازل نراها محاسن نتائج لا نراها . فالنار والزلازل والعواصف من جسم الارض بمكان البغض والحقد والشر في القلب البشري تثور وتضج ثم تخمد، ومن ثورتها وضجيجها وخمودها تبتدع الالهة معرفة جميلة يبتاعها الانسان بدمعه ودمه وارزاقه

اوقفتني الذكرى ونكبة هذه الامة تملأ الاسماع أنةً وعويلاً ، وصوَّرت امام عينيَّ كل ما مرَّ عَلَى مرسح الايام الغابرة من العبر والخطوب . فرأيت الانسان في كل ادواره يقيم عَلَى صدر الارض البروج والقصور والهياكل، والارض ترجعها الى قلبها . رأيت الاشداء يشيدون المباني القوية ، والنحاتين يخلقون من الصخور صوراً واشباحاً ، والرسامين يزينون الجدران والمداخل بالنقوش والنسيج . ثم رأيت هذه اليابسة تفغر فاها وتبتاع بخشونة ما الفتهُ الايادي المتفننة

والعقول الراجحة ،ماحيةً بقساوتها ظواهر الصور والاشباح ، مدمرة بسخطها خطوط الرسوم والنقوش ، دافنةً بعنفها فخامة الدعائم والجدران ، ممثلةً دور حسناء مستغنية عن الحلى التي يصيغها ابن آدم ،مستكفية بحلل المروج الخضراء المزركشة بذهب الرمال وجواهر الحصى ٠٠٠٠٠

عَلَى انني وجدت بين هذه النكبات المخيفة والرزايا الهائلة الوهية الانسان واقفةً كالجبار تسخر بحماقة الارض وغضب العناصر ، ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرنسيسكو ترتل انشودة الخلود قائلة : لتأخذ الارض ما لها فلا نهاية لي



منيتـان

***

في سكينة الليل هبط الموت من لدن الله نحو المدينة النائمة واستقر عَلَى اعلى مأذنة فيها وخرق بعينيه النيرتين جدران المساكن ورأى الارواح المحمولة عَلَى اجنحة الاحلام والاجساد المحكومة بمفاعيل الكرى

ولما توارى القمر وراء الشفق وتوشحت المدينة بنقاب الخيال سار الموت بقدم هادئة بين المساكن حتى بلغ صرح القوي الغني ، فدخل ولم تصده الحواجز ، ووقف بجنب سريره ثم لمس جبينه فانذعر من غفلته ، ولما رأى خيال الموت امامه صرخ بصوت تجسمت فيهِ عوامل الحنق والخوف وقال: ابعد عني ايها الحلم المخيف . اذهب ايها

الخيال الشرير · كيف دخلت ايها السارق وماذا تروم ايها الخاطف ؟ اذهب فانا رب البيت · اذهب والا ناديت العبيد والحراس فيمزقونك أرَباً ·

حينئذٍ اقترب الموت وبصوت يحاكي الرعد قال : « انا هو الموت فانتبه واعتبر ! » فاجاب القوي الموسر « ماذا تريد مني الان وماذا تطلب ؟ لماذا جئت وانا لم انهِ اعمالي بعد ؟ ماذا تطلب من الاقوياء نظيري ؟ اذهب الى السقماء · اغرب عني ولا ترني اظافرك الجارحة وشعرك المسدول كالافاعي · رح فقد سئمت النظر الى جانحيك الهائلين وجسدك البالي » وبعد سكينة مزعجة زاد « لا لا ايها الموت الرؤُوف — لا تحفل بما قلته، فالخوف يوحي ما يحرّمهُ القلب — خذ مكيالاً من ذهبي او قبضة من ارواح عبيدي واتركني وشأني ·· لي يا موت مع الحياة حساب لم انههِ ومع الناس مالٌ لم استوفهِ · لي بين امواج البحر

مراكب لم تصل الى الساحل، وفي قلب الارض غلة لم تنبت.
خذ ما شئت من هذه الاشياء واتركني — لي جوارٍ
كالصباح جمالاً فاختر منهن ما تريد — اسمع ايها الموت: لي
وحيد احبهُ وهو عقدة آمالي، خذه واتركني. خذ ما تشاء.
خذ كل شيءٍ واتركني.»

حينئذٍ وضع الموت يده عَلَى فم عبد الحياة الترابية
وأخذ حقيقته واعطاها للهوآء

سار الموت بين احياء الفقراء الضعفاء حتى بلغ بيتاً
حقيراً فدخله واقترب من سرير عليهِ فتىً في ربيع العمر،
وبعد ان تأمل وجهه الهادئ لمس عينيه فاستيقظ ولما رأى
الموت واقفاً بجانبه جثا عَلَى ركبتيهِ ورفع ذراعيه نحوه
وقال بصوت اودعه كلما في نفسهِ من المحبة والشوق:
«ها انذا ايها الموت الجميل — اقتبل نفسي ياحقيقة احلامي
وموضوع آمالي! ضمني ياحبيب نفسي، فانت رحوم

لا تتركني ههنا . انت رسول الالهة . انت يمين الحق، فلا تتخلَّ عني — كم طلبتك ولم اجدك، وكم ناديتك ولم تسمع — قد سمعتني الان، فلا تقابل شغفي بالصدود — عانق نفسي يا حبيبي الموت »

وضع الموت اذ ذاك انامله اللطيفة عَلَى شفتي الفتى واخذ حقيقته ووضعها تحت جنحيه

ولما حلّق الموت في الجو نظر نحو هذا العالم ونفخ في الهواء هذه الكلمات : « لن يرجع الى الابدية الا من جاء من الابدية »



على ملعب الدهر

***

ودقيقة تتراوح بين تأثيرات الجمال واحلام الحب لهي اسمى واثمن من جيل ملأه المجد الذي يمنحهُ الضعيف المسكين للقوي الطامع

من تلك الدقيقة تنبثق الوهية الانسان، وفي ذاك الجيل تنام نوماً عميقاً مكتنفة ببراقع احلام مزعجة . في تلك الدقيقة تتحرر النفس من اعباء شرائع الانسان المتباينة ، وفي ذاك الجيل تحبس وراء جدران الاهمال مثقلة بقيود الظلم . تلك الدقيقة كانت مهد نشيد سليمان وموعظة الجبل وتائية الفارض ،وذاك الجيل كان القوة العمياء التي هدمت هياكل بعلبك ودكت مباني تدمر وسحقت بروج بابل

ويوم صرفتهُ النفس آسفة عَلَى موت حقوق الفقير، متأوهة عَلَى فقدان العدل لهو اجلّ وافضل من عمر يضيعهُ الانسان مسروراً عَلَى مائدة الشهوات ، مستسلماً لقضاء الانانية . ذاك يوم يطهر القلب بناره ويفعمه بنوره ، وذا عمر يخيم عليهِ بجنحه القتم ويلحده طي طبقات التراب. ذاك يوم كان يوم العبر، ويوم الجلجلة ، ويوم الهجرة، وذا عمر انفقهُ نيرون في سوق المظالم ووقفه قارون عَلَى مذبح المطامع وطمره دون جوان في قبر الجسديات

وهذه هي الحياة — تمثلها الليالي عَلَى ملعب الدهر نظير مأساة ، وتنشدها الايام كاغنية ، وفي النهاية تحفظها الابدية كجوهرة ...



خليلي

***

لو علمت ، ياخليلي الفقير، ان الفاقة التي تقضي عليك بالشقاء هي هي التي توحي اليك معرفة العدل وتبثك ادراك كنه الحياة، لرضيت بقسمة الله . قلت: معرفة العدل، لان الغني مشغول عن تلك المعرفة بخزائنه . وقلت : كنه الحياة، لان القوي منصرف عنها الى المجد . فافرح اذن بالعدل، لانك لسانه، وبالحياة، لانك كتابها . وابتهج، فانت مصدر فضيلة عاضديك وعاضد فضيلة الاخذين يدك

ولو دريت يا حبيبي الحزين ان الارزاء التي اصبحت مغلوبها هي تلك القوة التي تنير القلب وترفع النفس من دركات الاستهزاء الى درجات الاعتبار لقنعت بها أرثاً ،

وبتأثيراتها مهذباً ، وعلمت ان الحياة سلسلة ذات حلقات آخذة بعضها برقاب البعض ، وان الحزن حلقة ذهبية تفصل بين الاستسلام لمآتي الحاضر والتعلل ببهجة الآتي ، كما يفصل الصبح بين النوم واليقظة

خليليّ — ان الفقر يظهر شرف النفس ، والغنى يبين لؤمها ، والحزن يلطف العواطف ، والسرور يدملها . لان الانسان ما برح يستخدم المال والسرور توصلاً للازدياد ، مثلما يفعل باسم الكتاب شرًا ينزه عنهُ الكتاب ، وباسم الانسانية ما تأباه الانسانية

لو باد الفقر ونأى الحزن لاصبحت النفس صحيفة خالية الا من ارقام تدل عَلَى الانانية ومحبة الاكثار ، والفاظ مفادها الشهوات الترابية ، لاني نظرت فوجدت الالوهية ، وهي الذات المعنوية في الانسان ، لا تباع بالمال ولا تنمو بمسرات فتيان العصر ، وتأملت ، فرأيت الغني ينبذ الوهيته

ويحرص على امواله، وفتى العصر يغادرها ويتبع ملذاته

ان الساعة التي تصرفها، ايها الفقير، مع رفيقتك وصغارك بعد مجيئك من الحقل لهي رمز العائلة البشرية المستقبلة — هي عنوان سعادة الاجيال الاتية، والحياة التي يصرفها المثري بين الخزائن لهي حياة دنية تحاكي حياة الدود في القبور — هي رمز الخوف

والدموع التي تذريها ، ايها الحزين ، هي اعذب من ضحك المتناسي وأحلى من قهقهة المستهزئ . تلك دموع تغسل القلب من ادران البغض وتعلم ذارفها كيف يشارك منكسري القلب بشواعره — هي دموع الناصري

ان القوة التي زرعتها ، ايها الفقير، واستغلها الغني القوي سوف تعود اليك، لان الاشياء ترجع الى مصادرها بحكم الطبيعة والاسى الذي عانيته ايها الحزين، ينقلب فرحاً بحكم السماء

سوف تتعلم الاجيال الاتية المساواة من الفقر، والمحبة من الاحزان

حديث الحب

***

في بيت منفرد جلس فتىً في صبح الحياة ينظر آنـاً من النافذة الى السماء المزدانة بالكواكب ، وآونةً الى رسم صبية بين يديه . رسمٌ تنعكس خطوطه والوانه عَلَى وجههِ ، فتظهر علته اسرار هذا العالم وخفايا الابدية . صورة ملامح امرأة تناجيه جاعلة عينيهِ آذاناً تفقه لغة الارواح السابحة في فضاء تلك الغرفة ومبتدعة من مجموعه قلوباً انارها الحب وافعمها الشوق.

كذا مرت ساعة ، كأنها دقيقة احلام مستحبة او عام من حياة البقاء ، ثم وضع الفتى الرسم امامه واخذ قلماً وورقة وكتب :

« يا حبيبة نفسي !

ان الحقائق العظيمة الفائقة الطبيعة لا تنتقل من بشريّ الى آخر بواسطة الكلام البشري المتعارف، لكنها تختار السكينة سبيلاً بين النفوس . وانا اشعر بان سكينة هذا الليل تسعى بين نفسينا حاملة رسائل ارق من تلك التي يكتبها النسيم عَلَى وجه الماء، تالية كتاب قلبينا عَلَى قلبينا — ولكن مثلما شاء الله وجعل النفوس في اسر الاجسام شاء الحب وجعلني اسير الكلام ... يقولون يا حبيبتي ان الحب ينقلب بالعباد ناراً آكلة . وانا وجدت ان ساعة الفراق لم تقوَ عَلَى فصل ذاتينا المعنويتين، مثلما علمت عند اول لقاء ان نفسي تعرفكِ منذ دهور، وان اول نظرة اليك لم تكن بالحقيقة اول نظرة ..... يا حبيبتي ان تلك الساعة التي جمعت قلبينا المنفيين عن العالم العلوي هي من ساعات قليلة تدعم اعتقادي بازلية النفس وخلودها — في مثل تلك

الساعة تكشف الطبيعة القناع عن وجه عدلها المتناهي والمظنون بهِ ظلماً . . .

هل تذكرين يا حبيبتي ذاك الروض، حيث وقفنا وكلانا ناظر وجه حبيبه ؟ وهل تعلمين ان نظراتك كانت تقول لي ان محبتك لي لم تنبثق من الشفقة عليَّ ؟ تلك النظرات التي علمتني ان اقول لذاتي وللعالمين ان العطاء الذي يكون مصدره العدل لهو اعظم من الذي يبتدئ من الحسنة ؟ وان المحبة التي تبتدعها الظروف تشابه مياه المستنقعات

امامي يا حبيبتي حياة اريدها ان تكون عظيمة وجميلة. حياة تؤاخي ذكرى الانسان الآتي وتستدعي اعتباره ومحبته . حياة قد ابتدأت عندما لقيتك وانا واثق بخلودها، لاني مؤمن بكونك قادرة علَى اظهار القوة التي اودعني الله اياها متجسمة باقوال واعمال كبيرة، مثلما تستنبت الشمس

ازهار الحقل ذات العرف الطيب ، وكذا تظل محبتي لي واللاجيال، وتبقى منزهة عن الانانية لتعميمها ، ومتعالية عن الابتذال لتخصيصها بكِ »

وقام الفتى ومشى بتمهل في تلك الغرفة ثم نظر من النافذة ورأى القمر قد طلع من وراء الافق وملأ الفضاء اشعة لطيفة ، فرجع وكتب في تلك الرسالة :

« سامحيني يا حبيبتي فقد ناجيتك بضمير المخاطب وانت نصفي الجميل الذي فقدتهُ عندما خرجنا من يد الله في آنٍ واحد — سامحيني يا حبيبتي . »



الحيوان الابكم

«وفي نظرات الحيوان الابكم كلام تفهمه نفس الحكيم»
(شاعر هندي)

في عشية يوم تغلبت فيهِ تخيلاتي عَلَى عاقلتي مررت باطراف احياء المدينة ووقفت امام منزل مهجور تداعت اركانه وحطت دعائمه ولم يبقَ منهُ سوى اثر يخبر عن هجر طويل ويدل عَلَى زوال محزن . فرأيت كلباً يتوسد الرماد وقد ملأَت القروح جسمهُ الضعيف واستحكمت العلل بهيكله المهزول ، فصار يرمق الشمس الجانحة نحو الغروب بعين وسمت عليها اشباح الذل وبدت فيها مظاهر القنوط واليأس ، فكأنهُ درى بان الشمس قد اخذت تسترجع حرارة انفاسها عن تلك البقعة المهجورة البعيدة عن

الاولاد مضطهدي الحيوان الضعيف . فصار يرمقها بعين آسفة مودّعة . فاقتربت منهُ عَلَى مهـل واذًا لو عرفت النطق بلسانه فاعزيه في شدائده وأبدي له شفقة في بؤسه، ولما دنوت منهُ خافني وتحرك ببقايا حياة قاربت الانحلال مستنجداً بقوائم شلتها العلة وراقبها الفناء . واذ لم يقوَ عَلَى النهوض نظر اليَّ نظرة فيهـا مرارة استرحامٍ وحلاوة استعطاف — نظرة فيها انعطاف وملامة — نظرة قامت مقام النطق ، فكانت افصح من لسان الانسان وابلغ من دموع المرأة . ولما تلاقت عيناي بعينيه الحزينتين تحركت عواطفي وتمايلت تأثيراتي فجسمت تلك النظرات وابتدعت لها اجساداً من كلام متعارف بين البشر . نظرات مفادها: « كفى ما بي يا هذا . وكفى ما عانيت من اضطهاد الناس ، وما قاسيت من ألم الامراض . امضِ واتركني وسكينتي استمد من حرارة الشمس دقائق الحياة فقد هربت من

مظالم ابن آدم وقسوته والتجأت الى رماد اكثر نعومة من قلبه واختبأت بين خرائب اقل وحشة من نفسهِ . اذهب عني، فما انت الا من سكان ارض ما برحت ناقصة الاحكام، خالية من العدل . . انا حيوان حقير، لكنني خدمت ابن آدم وكنت في منزله مخلصاً ووفياً ، وفي رفقته متربصاً وجاسوساً . كنت شريكاً في احزانهِ، ومغبوطاً في افراحه، متذكراً ايام بعده، مترحباً عند مجيئه، وكنت اكتفي بفتات مائدته واسعد بعظم جرّده باضراسه . ولكن لما شخت وهرمت وانشبت الامراض في جسمي اظافرها نبذني وابعدني عن داره وصيرني ملعبة لصبيان الازقة القساة، وهدفاً لنبال العلل ، ومحطاً لرحال الاقـذار . انا، يا ابن آدم، حيوان ضعيف، لكني وجدت نسبة كائنة بيني وبين الكثيرين من اخوانك البشر الذين، اذا ما ضعفت قوائم، قلّ رزقهم وساءت حالهم . انا مثل جنود يحاربون عن الوطن في

شبيبتهم ويستثمرون الارض في كهولتهم ، حتى اذا ما جاءَ شتاء الحياة وقلّ نفعهم ابعدوهم ونسوهم . انا مثل امرأَة تجملت صبية لتفريح قلب الشبيبة ، وسهرت زوجة في الليالي لتربية الاطفال، وتعبت امرأَة لايجاد رجال المستقبل، ولكن لما شاخت وعجزت اصبحت نسياً منسياً وامراً مكروهاً .. آه ما اظلمك يا ابن آدم وما اقساك ! »

كانت نظرات ذلك الحيوان تتكلم وقلبي يفهم ونفسي تتراوح بين شفقتي عليه وتصوراتي بابناء بجدتي . ولما أَغمض عينيه لم اشأْ ازعاجه . فذهبتُ ...



السلم

***

سكنت العاصفة بعد ان لوت الاغصان واحنت الزروع، وبانت النجوم كانها بقايا البرق المتكسرة عَلى اديم السماء ، وسكنت تلك الحقول ، كأن حرب العناصر لم تكن

في تلك الساعة دخلت الصبية مرقدها وجثت عَلى سريرها وبكت بكاءً مرًّا ثم تصاعدت زفراتها وتجسمت انفاسها الحارّة بهذه الكلمات: «رده اليّ يارب، فقدجفت دموعي وذابت حشاشتي . ارجعهُ ايها الروح القاضي بحكمة تسمو عن نهى الانسان،فقد جفاني التجلد وتحكم بي الاسى . خلصه من بين مخالب الحرب المحدّدة — انقذه من الموت

القامي وارحمهُ فتىً ضعيفاً جنت عليهِ قوة القوي فسلبني اياه — تعلي ايتها المحبة عَلَى عدوتك الحرب وخلصي حبيبي فهو من ابنائك — ابتعد عنهُ ايها الموت ودعه يرني او تعال وخذني اليهِ »

في تلك الدقيقة دخل فتىً تضم رأسه عصائب بيضاء كتبت عليها الهيجاء احرفاً قرمزية واقترب من الصبية وحياها بدمعة وابتسامة ثم اخذ يدها ووضعها عَلَى شفتيهِ الملتهبتين ، و بصوت تآلفت فيهِ عوامل الحب الجارح ومفاعيل اللقاء المفرح قال : « لا تجفلي فقد اتى من تبكين من اجله — افرحي فقد اعاد اليك السلم من سرقهُ الحرب وارجع اليك فتى الانسانية ما سلبه ابن المطامع . كفكفي الدمع يا حبيبتي وابتسمي ، لان الشعوب ابية ترحم متى عمت قساوة ابية الشعوب — لا تعجبي من ايابي حياً ، فالحب وسمٌ يراه الموت فينصرف ، ويتوسمهُ العدو فيتقهقر — انا هو ، فلا

تحسبيني خيالاً جاء من مرتع المنايا ليزور مربعاً يسكنهُ جمالكِ والسكون . لا تخافي فانا حقيقة سلمت من بين الاسنة والنار لتخبر الناس بغلبة الحب علَى الحرب — انا كلمة لفظها رجل السلم لتكون توطئة لرواية سعادتك »

انعقد اللسان اذ ذاك وناب الدمع عن الكلام وحامت ملائكة السرور حول ذلك الكوخ الحقير واسترجع القلبان ما فقداه عند الوداع .

ولما جاء الصباح وقف الاثنان في وسط الحقل يتأملان في جمال الطبيعة ، و بعد سكينة فيها من الاحاديث ما فيها نظر الجندي نحو المشرق الاقصى وقال لحبيبته : « انظري الشمس طالعة من الظلمة »



الشاعـــر

***

حلقة توصل بين هذا العالم والآتي . منهل عذب تستقي منهُ النفوس العاطشة . شجرة مغروسة عَلَى ضفة نهر الجمال ذات ثمار يانعة تطلبها القلوب الجائعة . بلبلٌ يتنقل عَلَى اغصان الكلام وينشد انغاماً تملأُ خلايا الجوارح لطفاً ورقة . غيمة بيضاء تظهر فوق خط الشفق ثم تتعاظم وتتصاعد وتملأُ وجه السماء وتنسكب لتروي ازهار حقل الحياة . ملك بعثتهُ الالهة ليعلم الناس الالهيات . ونور ساطع لا تغلبهُ ظلمة ولا يخفيه مكيال ملأته زيتاً عشتروت الهة الحب واشعله ابولون اله الموسيقى

وحيد يرتدي البساطة ويتغذى اللطف ويجلس عَلَى

احضان الطبيعة ليتعلم الابتداع ويسهر في سكينة الليل منتظراً هبوط الروح . زرّاعٌ يبذر حبات قلبه في رياض الشواعر، فتنبت زرعاً خصيباً تستغله الانسانية وتتغذى بهِ

هذا هو الشاعر الذي تجهله الناس في حياتهِ وتعرفهُ عندما يودع هذا العالم ويعود الى موطنهِ العلوي . هذا الذي لا يطلب من البشر الا ابتسامة صغيرة والذي تتصاعد انفاسه وتملأُ الفضاء اشباحاً حية جميلة والناس تبخل عليهِ بالخبز والمأوى

فالى متى ايها الانسان — الى متى يا ايها الكون تقيم من الفخر بيوتاً للأُلى جبلوا اديم التراب بالدماء وتعرض بتهامل عن الذين يهبونك من محاسن انفسهم سلاماً ووداعة ؟ وحتى مَ تعظم القتلة والذين احنوا الرقاب بنير الاستعباد وتتناسى رجالاً يسكبون نور الاحداق في ظلمة الليل ليعلموك ان ترى بهاء النهار ويصرفون العمر بين

مخالب الشقاء كيلا تفوتك لذة السعادة

وانتم يا ايها الشعراء ، يا حياة هذه الحياة ، قد تغلبتم عَلى الاجيال قسراً عن قساوة الاجيال وفزتم باكاليل الغار غصباً عن اشواك الغرور وملكتم في القلوب وليس لملككم نهاية وانقضاء ، يا ايها الشعراء



يوم مولدي

***

كتبت في باريس في ٦ كانون الاول سنة ١٩٠٨

في مثل هذا اليوم ولدتني امي

في مثل هذا اليوم ، منذ خمس وعشرين سنة ، وضعتني السكينة بين ايدي هذا الوجود المملوء بالصراخ والنزاع والعراك

ها قد سرت خمساً وعشرين مرة حول الشمس ، ولا ادري كم مرة سار القمر حولي ، لكنني لم ادرك بعد اسرار النور ، ولا عرفت خفايا الظلام .

قد سرتُ خمساً وعشرين مرة مع الارض والقمر والشمس والكواكب حول الناموس الكلي الاعلى ، ولكن

هوذا نفسي تهمس الآن اسماء ذلك الناموس مثلما ترجع الكهوف صدى امواج البحر ، فهي كائنة بكيانه ، ولا تعلم ماهيته ، وتترنم باغاني مده وجزره ، ولا تستطيع ادراكه

منذ خمس وعشرين سنة خطتني يد الزمان كلمة في كتاب هذا العالم الغريب الهائل . وها انذا كلمة مبهمة ، ملتبسة المعاني ، ترمز تارة الى لا شيء ، وطوراً الى اشياء كثيرة

ان التأملات والافكار والتذكارات تتزاحم على نفسي في مثل هذا اليوم من كل سنة ، وتوقف امامي مواكب الايام الغابرة ، وتريني اشباح الليالي الماضية ، ثم تبددها كما تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق ، فتضمحل في زوايا غرفتي اضمحلال اناشيد السواقي في الاودية البعيدة الخالية

في مثل هذا اليوم من كل سنة تجيء الارواح التي

رسمت روحي متراكضة نحوي من جميع اطراف العالم ، وتحيط بي مرتلةً اغاني الذكرى المحزنة ، ثم تتراجع على مهل وتختفي وراء المرئيات ، كأنها اسرابٌ من الطير هبطت على بيدر مهجور فلم تجد بذوراً تلتقطها ، فرفرفت هنيهة ثم طارت سابحة الى مكان آخر

في هذا اليوم تنتصب امامي معاني حياتي الغابرة ، كانها مرآةٌ ضئيلة انظر فيها طويلاً فلا ارى سوى اوجه السنين الشاحبة كأوجه الاموات ، وملامح الآمال والاحلام والاماني المتجعدة كملامح الشيوخ . ثم أغمض عيني وانظر ثانيةً في تلك المرآة ، فلا ارى غير وجهي ، ثم احدق بوجهي فلا ارى فيهِ غير الكآبة ، ثم استنطق الكآبة فاجدها خرساء لا تتكلم ، ولو تكلمت الكآبة لكانت اكثر حلاوة من الغبطة

في الخمس والعشرين سنة الغابرة قد احببت كثيراً .

وكثيراً ما احببت ما يكرههُ الناس وكرهت ما يستحسنونهُ.
والذي احببتهُ عندما كنت صبياً ما زلت احبهُ الان.
والذي احبهُ الان سأحبهُ الى نهاية الحياة، فالمحبة هي كل
ما استطيع ان احصل عليهِ، ولا يقدر احد ان يفقدني اياه

قد احببت الموت مرات عديدة، فدعوته باسماء
عذبة وتشببت بهِ سراً وعلناً. ولئن لم اسلُ الموت ولا نقضت
له عهداً، فانني صرت احب الحياة ايضاً. فالموت والحياة
قد تساويا عندي بالجمال، وتضارعا باللذة، وتشاركا بانماء
شوقي وحنيني، وتساهما محبتي وانعطافي

وقد احببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي
عبودية الناس للجور والهوان، وتتسع باتساع ادراكي
خضوعهم للاصنام المخيفة التي نحتتها الاجيال المظلمة،
ونصبتها الجهالة المستمرة، ونعمت جوانبها ملامس شفاه
العبيد، لكنني كنت احب هؤلاء العبيد بمحبتي الحرية،

واشفق عليهم، لانهم عميان يقبلون احناك الضواري الدامية ولا يبصرون، ويمتصون لهاث الافاعي الخبيثة ولا يشعرون، ويحفرون قبورهم باظافرهم ولا يعلمون . قد احببت الحرية اكثر من كل شيءٍ لانني وجدتها فتاةً قد اضناها الانفراد، وانحلها الاعتزال، حتى صارت خيالاً شفافاً يمر بين المنازل، ويقف في منعطفات الشوارع ، وينادي عابري الطريق ، فلا يسمعون ولا يلتفتون

وفي الخمس والعشرين سنة قد احببت السعادة مثل جميع البشر ، فكنت استيقظ كل يوم واطلبها كما يطلبونها ، لكنني لم اجدها قط في سبيلهم . ولا رأيت اثرَ اقدامها عَلى الرمال المحيطة بقصورهم ، ولا سمعت صدى صوتها خارجاً من نوافذ هياكلهم . ولما انفردت بطلبها سمعت نفسي تهمس في اذنيَّ قائلة : « السعادة صبية تولد وتحيا في اعماق القلب ولن تجيءَ اليه من محيطه . » ولما فتحت قلبي لكي

ارى السعادة وجدت هنالك مرآتها وسريرها وملابسها ·
لكنني لم اجدها

وقد احببت الناس — احببتهم كثيراً — والناس في شرعي ثلاثة : واحدٌ يلعن الحياة ، وواحدٌ يباركها ، وواحد يتأمل بها ، فقد احببت الاول لتعاسته ، والثاني لسماحته ، والثالث لمداركه

هكذا انقضت الخمس والعشرون سنة · وهكذا ذهبت ايامي ولياليَّ متسارعة ، متتابعة ، متساقطة من حياتي ، مثلما تتناثر اوراق الشجر امام رياح الخريف

واليوم ، وقد وقفت متذكراً ، وقوف سائر متعب بلغ منتصف العقبة ، انظر الى كل ناحية فلا ارى لماضي حياتي اثراً استطيع ان اومئ اليه امام وجه الشمس قائلاً : «هذا لي» ولا اجد لفصول اعوامي غلةً سوى اوراق مخضبة بقطرات الحبر السوداء ، ورسوم غريبة مبعثرة مملوءة

خطوطاً والواناً متباينة متناسقة . في هذه الاوراق المنثورة ، والرسوم المبعثرة ، قد كفنت ودفنت عواطفي وافكاري واحلامي ، مثلما يدفن الزراع البذور في بطن الارض ، ولكن الزراع الذي يخرج الى الحقل ويلقي البذور بين ثنايا التراب يعود الى بيتهِ في المساء آملاً راجياً منتظراً ايام الحصاد والاستغلال ، اما انا فقد طرحت حبات قلبي بلا أَمل ، ولا رجاء ، ولا انتظار

والان ، وقد بلغت هذه المرحلة من العمر ، فتراءى لي الماضي من وراء ضباب التنهيد والاسى ، وبان لناظري المستقبل من وراء نقاب الماضي ، اقف وانظر الى الوجود من خلال بلور نافذتي ، وارى وجوه الناس واسمع اصواتهم متصاعدة الى الفضاء ، واعي وقع اقدامهم بين المنازل ، واشعر بملامس ارواحهم وتموجات اميالهم ونبضات قلوبهم انظر ، فارى الاطفال يلعبون ويتراكضون ويذرون

التراب بعضهم في وجوه بعض ضاحكين مقهقهين ، وأرى الفتيان يسيرون بعزم رافعين رؤوسهم كأنهم يقرأون قصيدة الشباب مكتوبة بين حواشي الغيوم المبطنة باشعة الشمس ، وأرى الصبايا يخطرن ويتثنين كالاغصان ويتبسمن كالازهار وينظرن الى الفتيان من وراء جفون ترتعش بالميل والانعطاف وأرى الشيوخ يمشون على مهل محدودبي الظهور ، متوكئين على العصي ، محدقين بالارض ، كأنهم يبحثون بين دقائق التراب عن جواهر اضاعوها . اقف بجانب نافذتي وانظر متاملاً بجميع هذه الصور والاشباح الساكنة بسيرها ، المتطايرة بدبيبها في شوارع المدينة وازقتها ، ثم انظر متأملاً بما وراء المدينة ، فارى البرية بكل ما فيها من الجمال الرهيب والسكينة المتكلمة ، والتلول الباسقة ، والاودية المنخفضة ، والاشجار النامية ، والاعشاب المتمايلة ، والازهار المعطرة ، والانهار المترنمة ، والاطيار

المفردة . ثم انظر الى ما وراء البرية ، فارى البحر بكل ما في اعماقهِ من الغرائب والعجائب ، والمدافن والاسرار . وما عَلَى سطحهِ من الامواج المزبدة ، الغضوبة ، المتسارعة ، المتهاونة ، والابخرة المتصاعدة ، المتبددة ، المتساقطة ، ثم انظر متأملاً بما وراء البحر ، فارى الفضاء غير المتناهي بكل ما فيهِ من العوالم السابحة ، والكواكب اللامعة ، والشموس والاقمار ، والسيارات والثوابت ، وما بينها من الدوافع والجواذب المتسالمة ، المتنازعة ، المتولدة ، المتحولة ، المتماسكة بناموس لا حد له ولا مدى ، الخاضعة لشرع كلي ليس لبدئه ابتداء ولا لنهايته نهاية . انظر واتأمل بجميع هذه الاشياء من خلال بلور نافذتي فانسى الخمس والعشرين وما جاء قبلها من الاجيال وما سيأتي بعدها من القرون ، ويظهر لي كياني ومحيطي بكل ما اخفاه واعلنهُ كذرة من تنهدة طفل ترتجف في خلاء ازليّ الاعماق ، سرمديّ

العلو ، ابدي الحدود · لكنني اشعر بكيان هذه الذرة — هذه النفس — هذه الذات التي ادعوهـا « انا » · اشعر بحراكها ، واسمع ضجيجها · فهي ترفع الان اجنحتها نحو العلاء وتمد يداها الى كل ناحية · وتتمايل مرتعشة في مثل اليوم الذي ابانها للوجود ، وبصوت متصاعد من قدس اقداسها ، تصرخ قائلة : « سلام ايتها الحياة · سلام ايتها اليقظة · سلام ايتها الرؤيا · سلام ايها النهار الغامر بنورك ظلمة الارض · وسلام ايها الليل المظهر بظلمك انوار السماء · سلام ايتها الفصول · سلام ايها الربيع المعيد شبيبة الارض · سلام ايها الصيف المذيع مجد الشمس · سلام ايها الخريف الواهب ثمار الاتعاب وغلة الاعمال · سلام ايها الشتاء المرجع بثوراتك عزم الطبيعة · سلام ايتها الاعوام الناشرة ما اخفتهُ الاعوام · سلام ايتها الاجيال المصلحة ما افسدتهُ الاجيال · سلام ايها الزمن السائر بنا نحو الكمال · سلام

ايها الروح الضابط اعنة الحياة، المحجوب عنا بنقاب الشمس. وسلام لك ايها القلب، لانك تستطيع ان تهذ بالسلام وانت مغمور بالدموع . وسلام لكِ ايتها الشفاه، لانك تتلفظين بالسلام وانت تذوقين طعم المرارة . »



الطفل يسوع
والحب الطفل

***

كنت بالامس وحيداً في هذا العالم يا حبيبتي ، وكانت الوحدة قاسية كالموت . وكنت منفرداً كالزهرة النابتة في ظل الصخور المتعالية فلا تشعر الحياة بوجودي ، ولا انا اشعر بكيان الحياة . واليوم قد استيقظت نفسي ورأتك منتصبة بقربها ، فتهيبت وتهللت ، ثم سجدت امامك ، مثلما فعل ذلك الراعي عندما رأى العليقة مشتعلة

كانت بالامس ملامس الهوآء خشنة ياحبيبتي، واشعة الشمس ضعيفة ، وكان الضباب يستر وجه الارض وضجيج امواج البحر يشابه الرعود القاصفة . وكنت اتلفت الى كل

ناحية فلا ارى غير ذاتي المتوجعة واقفة بجانبي وخيالات الظلمة تهبط وتتصاعد حولي كاغربان الجائعة ، واليوم قد خف الهواء ، وغمر النور الطبيعة ، وسكنت الامواج ، وانقشعت الغيوم ، فكيفما نظرت اراكِ وارى اسرار الحياة محيطة بك كالهالات التي يحدثها جسم العصفور عَلَى وجه البحيرة الهادئة عندما يتحم بمائها

كنت بالامس كلمة صامتة في خاطر الليالي، فاصبحت اغنية مفرحة عَلَى السن الايام ، وقد تم هذا كله في دقيقة واحدة مؤلفة من نظرة وكلمة وتنهدة وقبلة . تلك الدقيقة يا حبيبتي قد جمعت بين استعدادات نفسي الغابرة واما نيها الآتية ، فكانت كالوردة البيضاء الخارجة من قلب الارض المظلم الى نور النهار . تلك الدقيقة هي من كل حياتي بمنزلة ميلاد يسوع من كل الاجيال لانها كانت مملوءة روحاً وطهراً ومحبة — لانها جعلت الظلمة في اعماقي

شعاعاً ، والكآبة مرحاً ، والشقاء سعادة

ان شعلات المحبة يا حبيبتي تهبط من السماء متموجة بصور متباينة واشكال متنوعة ، لكن فعلها وتأثيرها في هذا العالم هو واحد : فالشعلة الصغيرة التي تنير خلايا قلب الانسان الفرد هي كالشعلة العظيمة المشعشعة التي تنحدر من الاعالي وتنير ظلمات الامم جميعها ، لان في النفس الواحدة عناصر واميالاً وعواطف لا تختلف قط عن العناصر والاميال والعواطف الكائنة في نفس العائلة البشرية

كان اليهود يا حبيبتي يترقبون مجيء عظيم موعود به منذ ابتداء الدهر ليخلصهم من عبودية الامم ، وكانت النفس الكبيرة في اليونان ترى ان عبادة المشتري ومينرفا قد ضعفت ، فلم تعد تشبع الارواح من الروحيات ، وكان الفكر السامي في رومة يتأمل فيجد ان الوهية ابولون اصبحت تتباعد عن العواطف ، وجمال ڤينس الابدي قد اخذ يقترب

من الشيخوخة ، وكانت الامم كلها تشعر علَى غير معرفة منها بمجاعة نفسية الى تعاليم مترفعة عن المادة ، وبميل عميق الى الحرية الروحية التي تعلم الانسان ان يفرح مع قريبه بنور الشمس وجمال الحياة . تلك هي الحرية الجميلة التي تخول الانسان ان يقترب من القوة غير المنظورة بلا خوف ولا وجل بعد ان يقنع الناس طراً بانهُ يتقرب منهم من اجل سعادتهم

كان ذلك كله من الفي سنة يا حبيبتي عندما كانت عواطف القلب البشري تحوم مرفرفة حول المرئيات وتخشى الدنو من الروح الكلي الخالد — عندما كان «بان» اله الاحراج يملأ نفوس الرعاة جزعاً وبعل اله الشمس يضغط بايدي كهانه علَى قلوب المساكين والضعفاء

ففي ليلة واحدة ، بل في ساعة واحدة ، بل في لمحة واحدة تنفرد عن الاجيال،لانها اقوى من الاجيال انفتحت

شفاه الروح ولفظت « كلمة الحياة » التي كانت في البدء عند الروح ، فنزلت مع نور الكواكب واشعة القمر وتجسدت وصارت طفلاً بين ذراعي ابنة من البشر ، في مكان حقير ، حيث يحمي الرعاة مواشيهم من كواسر الليل .. ذلك الطفل النائم على القش اليابس في مذود البقر — ذلك الملك الجالس فوق عرش مصنوع من القلوب المثقلة بنير العبودية ، والنفوس الجائعة الى الروح ، والافكار التائقة الى الحكمة — ذلك الرضيع الملتف بأثواب امه الفقيرة قد انتزع بلطفه صولجان القوة من المشتري واسلمهُ للراعي المسكين المتكئ على الاعشاب بين اغنامه ، واخذ الحكمة من مينرفا برقته ووضعها على لسان الصياد الفقير الجالس في زورقه على شاطئ البحيرة ، واستخلص الغبطة بحزن نفسه من ابولون ووهبها لكسير القلب الواقف مستعطياً امام الابواب ، وسكب الجمال بجماله من فينس

وبثه في روح المرأة الساقطة الخائفةمن قساوة المضطهدين،
وانزل البعل عن كرسي جبروته واقام مكانه الفلاح البائس
الذي ينثر في الحقل البذور مع عرق الجبين

***

اولم تكن عواطفي بالامس كاسباط اسرائيل ياحبيبتي؟
اما ترقبت في سكينة الليل مجيء مخلص ينقذني من عبودية
الايام ومتاعبها؟ اما شعرت كالامم الغابرة بالمجاعة الروحية
العميقة؟ اما سرت عَلى طرق الحياة مثل صبي ضائع بين
الاحياء المهجورة. اولم تكن نفسي كالنواة المطروحة عَلَى
الصخرة: لا الطير يلتقطها فيميتها، ولا العناصر تشقها فتحييها

قد كان ذلك كله بالامس يا حبيبتي عندما كانت
احلامي تدب في جوانب الظلمة وتخاف الاقتراب من النور
— عندما كان اليأس يلوي اضلعي والضجر يقوّمها

فني ليلة واحدة، بل في ساعة واحدة، بل في لمحة

واحدة تنحى عن سني حياتي ، لانها اجمل من سني حياتي
هبط الروح من وسط دائرة النور الاعلى ، ونظر الي من
وراء عينيك ، وتكلم معي بلسانك . ومن تلك النظرة
وهاتيك الكلمة انبثق الحب وحل في اعشار قلبي ... هذا
الحب العظيم الجالس في هذا المذود المنزوي في صدري
— هذا الحب الجميل الملتف باقمطة العواطف — هذا الرضيع
اللطيف المتكئ على صدر النفس قد جعل الاحزان في
باطني مسرة واليأس مجداً والوحدة نعيماً . هذا الملك
المتعالي فوق عرش الذات المعنوية قد اعاد بصوته الحياة
لايامي الميتة ، وارجع بملامسه النور الى اجفاني المقرحة
بالدموع ، وانتشل بيمينه امالي من لجة القنوط

* * *

كان كل الزمن ليلاً ياحبيبتي ، فصار فجراً ، وسيصير
نهاراً ، لان انفاس الطفل يسوع قد تخللت دقائق الفضاء

ومازجت ثانويات الاثير . وكانت حياتي حزناً ، فصارت فرحاً ، وستصير غبطة ، لان ذراعي الطفل قد ضمتا قلبي وعانقتا نفسي



مناجـــاة ارواح

***

استيقظي يا حبيبتي ! استيقظي لان روحي تناديك من وراء الابحار المائلة ، ونفسي تمد جنحيها نحوك فوق الامواج المزبدة الغضوبة . استيقظي ، فقد سكنت الحركة واوقف الهدوء ضجة سنابك الخيل ووقع اقدام العابرين وعانق النوم ارواح البشر ، فبقيت وحدي مستيقظاً ، لان الشوق ينتشلني كلما اغرقني النعاس ، والمحبة تدنيني اليك عندما تقصيني الهواجس . قد تركت مضجعي يا حبيبتي خوفاً من خيالات السلو المختبئة بين طيات اللحف ورميت بالكتاب ، لان تأوهي قد اباد السطور من صفحاته ، فاصبحت خالية بيضاء امام عيني . استيقظي ! استيقظي يا حبيبتي

واسمعيني .

— هاءنذا يا حبيبي ! قد سمعت نداءك من وراء الابحار وشعرت بملامس جناحيك، فانتبهت وتركت مخدعي وسرت عَلَى الاعشاب ، فتبللت قدماي واطراف ثوبي من ندى الليل . ها انا واقفة تحت اغصان اللوز المزهرة اسمع نداء نفسك يا حبيبي !

— تكلمي يا حبيبتي ! ودعي انفاسك تسيل مع الهواء القادم نحوي من اودية لبنان . تكلمي ، فلا سامع غيري ، لان الظلمة قد دحرت جميع المخلوقات الى اوكارها ، والنعاس اسكر سكان المدينة وبقيت وحدي صاحياً

***

— قد نسجت السماء نقاباً من اشعة القمر والقته عَلَى جسد لبنان يا حبيبي !

— قد حاكت السماء من ظلمة الليل رداء كثيفاً مبطناً

بدخان المعامل وانفاس الموت وسترت بـه اضلع المدينة يا حبيبتي !

***

— قد رقد سكان القرى في اكواخهم القائمة بين اشجار الجوز والصفصاف وتسابقت نفوسهم نحو مراسح الاحلام يا حبيبي !

— قد اناخت احمال الذهب قامات البشر ، واوهنت عقبات المطامع ركبهم ، واثقلت المتاعب اجفانهم ، فارتموا عَلَى الفرش واشباح الخوف والقنوط تعذب قلوبهم يا حبيبتي

***

— قد سرت في الاودية خيالات الاجيال الغابرة ، وحامت عَلَى الروابي ارواح الملوك والانبياء ، فانثنت فكرتي نحو مسارح الذكرى وارتني عظائم الكلدانيين وفخامة الاشوريين ونبالة العرب

— قد سرت في الازقة ارواح اللصوص القاتمة ، وظهرت من بين شقوق النوافذ رؤوس افاعي الشهوات ، وجرت في منعطفات الشوارع انفاس الامراض ممزوجة بلهاث المنايا ، فازاحت الذكرى ستائر النسيان وارتني مكاره صادوم واثام عاموره

***

— قد تمايلت الاغصان ياحبيبي وتحالف حفيفها مع خرير ساقية الوادي ورددت على مسامعي نشيد سليمان ورنات قيثارة داود واغاني الموصلي

— قد ارتعشت نفوس اطفال الحي واقلقهم الجوع ، وتسارعت تنهدات الامهات المضطجعات على اسرة الهم واليأس ، واراعت احلام العوز قلوب الرجال المقعدين ، فسمعت نواحاً مراً وزفيراً متقطعاً يملأ الضلوع ندباً ورثاء

***

— قد فاحت روائح النرجس والزنبق وعانقت عطر الياسمين والبيلسان ثم تمازجت بانفاس الارز الطيبة وسرت مع تموجات النسيم فوق الطلول المتشعبة والممرات الملتوية ، فملأت النفس انعطافاً ومنحتها حنيناً الى الطيران

— قد تصاعدت روائح الازقة الكريهة واختمرت بجراثيم العلل ، ومثل اسهم دقيقة خافية قد خدشت الحس وسممت الهواء

***

— ها قد جاء الصباح ياحبيبي وداعبت اصابع اليقظة اجفان النيام وفاضت الاشعة البنفسجية من وراء الجبل وازالت غشاء الليل عن عزم الحياة ومجدها ، فاستفاقت القرى المتكئة بهدوء وسكينة عَلَى كتفي الوادي وترنمت اجراس الكنائس وملأت الاثير نداء مستحباً معلنة بدء صلاة الصباح ، فارجعت الكهوف صدى رنينها ، كأن

الطبيعة باسرها قامت مصلية . قد غادرت العجول مرابضها وتركت قطعان الغنم والماعز حظائرها وانثنت نحو الحقول ترتعي رؤوس الاعشاب المتلمعة بقطر الندى ومشى امامها الرعاة ينفخون الشبابات ووراءها الصبايا المتأهلات مع مع العصافير بقدوم الصباح

— قد جاء الصباح يا حبيبتي وانبسطت فوق المنازل المكردسة اكف النهار الثقيلة ، فازيحت الستائر عن النوافذ وانفتحت مصاريع الابواب، فبانت الوجوه الكالحة والعيون المعروكة ، وذهب التعساء الى المعامل وداخل اجسادهم يقطن الموت في جوار الحياة ، وعلى ملامحهم المنقبضة قد بان ظل القنوط والخوف ، كأنهم منقادون قهراً الى عراك هائل مهلك . ها قد غصت الشوارع بالمسرعين الطامعين وامتلأ الفضاء من قلقلة الحديد ودوي الدواليب وعويل البخار واصبحت المدينة ساحة قتال يصرع فيها القوي الضعيف

ويستأثر الغني الظلوم باتعاب الفقير المسكين

***

— ما اجمل الحياة ههنا ياحبيبي ، فهي مثل قلب الشاعر المملوء نوراً ورقة

— ما أقسى الحياة ههنا ياحبيبتي ، فهي مثل قلب المجرم المفعم بالاثم والمخاوف



ايتها الريح

***

تمرين آناً مترنحة فرحة ، وآونة متأوهة نادبة ، فنسمعك ولا نشاهدك ، ونشعر بك ولا نراك ، فكأنك بحر من الحب يغمر ارواحنا ولا يغرقها ، ويتلاعب بافئدتنا وهي ساكنة

تتصاعدين مع الروابي وتنخفضين مع الاودية وتنبسطين مع السهول والمروج . ففي تصاعدك عزم ، وفي انخفاضك رقة ، وفي انبساطك رشاقة ، فكأنك مليك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ويترفع مع الاقوياء المتشامخين

في الخريف تنوحين في الاودية فتبكي لنواحك الاشجار ،

وفي الشتاء تثورين بشدة فتثور معك الطبيعة باسرها ، وفي الربيع تعتلين وتضعفين ولضعفك تستفيق الحقول ، وفي الصيف تتوارين وراء نقاب السكون فنخالك ميتاً قتلته سهام الشمس ثم كفنته بحرارتها

لكن — انادبة كنت ايام الخريف ، ام ضاحكة من خجل الاشجار بعد ان عريتها من ملابسها ؟ أغاضبة كنت ايام الشتاء ، ام راقصة حول قبور الليالي المكلسة بالثلوج ؟ أعليلة كنت ايام الربيع ، ام حبيبة اضناها البعاد فجاءت تصعد بالتنهد انفاسها على وجه حبيبها شاب الفصول لتنبهه من رقاده ؟ اميتة كنت ايام الصيف ، ام هاجعة في قلوب الاثمار وبين جفنات الكروم وعلى بيادر القش ؟

***

انت تحملين من ازقة المدينة انفاس العلل ومن الروابي ارواح الازهار وهكذا تفعل النفوس الكبيرة التي تحتمل

اوجاع الحياة بسكينة ، وبسكينة نلتقي بافراحها

انت تهمسين في اذن الوردة اسراراً غريبة تفهم مفادها ، فتضطرب تارةً ، وطوراً تبتسم . وهكذا تفعل الالهة بارواح البشر

انت تبطئين هنا ، وتتسارعين هنالك ، وتتراكضين هنالك ، ولكنك لا تقفين قط . وهكذا تفعل فكرة الانسان التي تحيا بالحركة وتموت بالسبات

انت تكتبين عَلَى وجه البحيرة اشعاراً ثم تمحينها . وهكذا يفعل الشعراء المترددون

من الجنوب تجيئين حارة كالمحبة ، ومن الشمال تأتين باردة كالموت ، ومن المشرق لطيفة كملامس الارواح ، ومن المغرب تتدفقين شديداً كالبغضاء . امتقلبة انتِ كالدهر ؟ ام انتِ رسول الجهات تبلغين الينا ما تأتمنك عليهِ ؟

تمرين غاضبة في الصحاري فتدوسين القوافل بقساوة ثم

لحدينها بلحف الرمال. فهل انت انت ذلك السيال الخفي، المتموج مع اشعة الفجر بين اوراق الغصون، المنسل كالاحلام في منعطفات الاودية حيث تتمايل الازهار شغفاً بك وتتخاصر الاعشاب سكراً من انفاسك؟

تثورين فتلاً في البحار فتحركين ساكن اعماقها، حتى اذا ازبدت حنقاً عليك فتحت فاها لجة ولقمتها من السفن والارواح لقماً مرة. فهل انت انت ذلك الحب المتلاعب حنواً بغدائر الاطفال المتراكضين حول المنازل؟

***

الى اين تتسارعين بارواحنا وتنهداتنا وانفاسنا؟ الى اين تحملين رسوم ابتساماتنا؟ وماذا تفعلين بشعلات قلوبنا المتطايرة؟ هل تذهبين بها الى ما وراء الشفق — الى ما وراء هذه الحياة؟ ام تجرينها فريسة الى المغاور البعيدة والكهوف المخيفة وهناك تقذفينها يميناً وشمالاً حتى تضمحل وتختفي؟

في سكينة الليل تبح لك القلوب اسرارها ، وعند الفجر تحلك العيون اهتزازات اجفانها . فهل انت ذاكرة ما شعرت بهِ القلوب وما رأته العيون ؟

بين جنحيك يستودع الفقير صدى انسحاقه ، واليتيم حرقته ، والحزينة تأوهاتها . وطي اثوابك يضع الغريب حنينه ، والمتروك لهفته ، والساقطة عويل نفسها . فهل انت حافظة لهؤلاء الصغار ودائعهم ؟ ام انت كهذه الارض لا نودعها شيئاً الا تحوله الى جسمها ؟

أسامعة انت هذا النداء وهذا العويل ، وهذا الضجيج ، وهذا البكاء ؟ ام انت كالاقوياء من البشر تمتد اليهم الاكف فلا يلتفتون وتتصاعد نحوهم الاصوات فلا يسمعون ؟

اسامعةٌ انت يا حياة للسامع ؟

رجوع الحبيب

***

ما جاء الليل حتى انهزم الاعداء وفي ظهورهم تخديش السيوف ووخز الرماح ، فعاد الظافرون حاملين الوية الفخر ، منشدين اهازيج النصر عَلَى توقيع حوافر خيولهم المتساقطة كالمطارق عَلَى حصباء الوادي

اشرفوا عَلَى الجبة وقد طلع القمر من وراء فم الميزاب ، فظهرت تلك الصخور الباسقة متشامخة مع نفوس القوم نحو العلاء وبانت غابة الارز بين تلك البطاح كأنها وسام مجد اثيل علقته الاجيال الغابرة عَلَى صدر لبنان

ظلوا سائرين واشعة القمر تلمع عَلَى اسلحتهم ، والكهوف البعيدة تتقلد تهاليلهم ، حتى اذا مـا بلغوا جبهة العقبة

اوقفهم صهيل فرس واقف بين الصخور الرمادية كأنهُ قدّ منها . فاقتربوا منهُ مستطلعين، واذا بجثة هامدة مرتمية علَى اديم التراب المجبول بنجيع الدماء ، فصرخ زعيم القوم قائلاً : « اروني سيف الرجل، فاعرف صاحبه » . فترجل بعض الفرسان واحاطوا بالمصروع مستفسرين . وبعد هنيهة التفت احدهم نحو الزعيم وقال بصوت اجش : « قد عانقت اصابعه الباردة قبضة السيف بشدة ، فمن العار ان ننزعه »

وقال آخر : « قد لبس السيف غمداً من الدماء ، فاخفى فولاذه »

وقال آخر : « قد تجمدت الدماء علَى الكف والقبضة واوثقت الشفرة بالزند وصيرتهما واحداً »

فترجل الزعيم واقترب من القتيل قائلاً : « اسندوا رأسه ودعوا اشعة القمر ترينا وجهه » ففعلوا مسرعين ، وبان وجه القتيل من وراء نقاب الموت ظاهرة عليهِ ملامح

البطش والبأس والتجلد — وجه فارس قوي يتكلم بلا نطق عن شدة رجوليته ، وجه متأسف فارح ، وجه من لاقى العدو عابساً وقابل الموت مبتسماً ، وجه بطل لبناني حضر موقعة ذلك النهار ورأى طلائع الاستظهار ، لكنهُ لم يبقَ لينشد مع رفقاه اهازيج النصر . ولما ازاحوا كوفيته ومسحوا غبار المعمعة عن وجههِ المصفرّ ذعر الزعيم وصرخ متوجعاً : هذا ابن الصعبي ، فيالخسارة ! » فردد القوم هذا الاسم متأوهين ، ثم سكتوا كأن قلوبهم السكرى بخمر النصر قد فاجأها الصحو ، فرأت ان خسارة هذا البطل هي اجسم من مجد التغلب وعز الانتصار . ومثل تماثيل الرخام اوقفهم هول المشهد وايبس السنتهم فسكتوا ، وهذا كل ما يفعله الموت في نفوس الابطال ، فالبكاء والنحيب حريان بالنساء ، والعويل والصراخ خليقان بالاطفال ، ولا يجمل برجال السيف غير السكوت المملوء هيبةً ووقاراً — ذلك السكوت

الذي يقبض عَلَى القلوب القوية مثلما تقبض مخالب النسر عَلَى عنق الفريسة — ذلك السكوت الذي يترفع عن الدموع والعويل ، فيزيد بترفعه البلية هولاً وقساوة — ذلك السكوت الذي يهبط بالنفس الكبيرة من قمم الجبال الى اعماق اللجج — ذلك السكوت الذي يعلن مجيء العاصفة ، وان لم تجيء كان هو اشد فعلاً منها .

خلعوا اثواب الفتى المصروع ليروا اين وضع الموت يده ، فبانت كلوم الشفار في صدره كانها افواه مزبدة تتكلم في هدوء ذلك الليل عن همم الرجال . فاقترب الزعيم وجثا مستفحصاً فوجد دون سواه منديلاً مطرزاً بخيوط الذهب مربوطاً حول زنده . فتأمله سراً وعرف اليد التي غزلت حريره والاصابع التي حاكت خيوطه . فستره بالاثواب وتراجع قليلاً الى الوراء حاجباً وجهه المنقبض بيده المرتعشة — تلك اليد التي كانت تزيح بعزمها رؤوس

الاعداء قد ضعفت وارتجفت وصارت تمسح الدموع ، لانها لامست حواشي منديل عقدت اطرافه اصابع محبوبة حول زند فتى جاء ليشهد يوم الكريهة مدفوعاً بسالته فصرع وسوف يرجع اليها محمولاً عَلَى اكف رفاقه

وبينما كانت نفس الزعيم تتراوح بين مظالم الموت وخفايا الحب قال احد الواقفين : « تعالوا نحفر له قبراً تحت تلك السنديانة ، فتشرب اصولها من دمه وتتغذى فروعها من بقاياه ، فتزداد قوة وتصير خالدة وتكون له رمزاً يمثل لهذه الطلول بطشه وبأسه »

فقال آخر : « لنحملهُ الى غابة الارز ونقبره بقرب الكنيسة ، فتظل عظامه محفورة بظل الصليب الى آخر الدهر »

وقال آخر : « هنا اقبروه هنا ، حيث جبل التراب بدمائه ، واتركوا سيفه في يمينهِ ، واغرسوا رمحه بجانبه

وانحروا حصانه عَلَى قبره ، ودعوا اسلحته تؤنسه في هذه الوحدة »

وقال آخر : « لا تلحدوا سيفاً مضرجاً بدم الاعداء ، ولا تنحروا مهراً يخوض المنايا ، ولا تتركوا في الوعر سلاحاً تعود هز الاكف وعزم السواعد ، بل احملوها الى ذويه لانها خير ميراث »

وقال آخر : « تعالوا نجثو مصلين حواليه صلاة الناصري ، فتغفر له السماء وتبارك انتصارنا »

وقال آخر : « لنرفعهُ على الاكتاف جاعلين له الرماح والتروس نعشاً ، فنطوف بهِ في هذا الوادي منشدين اهازيج النصر فيشاهد اشلاء الاعداء وتبتسم شفاه جراحه قبل ان يخرسها تراب القبر »

وقال آخر : « تعالوا نعليه سرج جواده ونسنده بجماجم القتلى ونقلده رمحه وندخله الاحياء ظافراً ، فهو لم يستسلم

للمنية الا بعد ان حملها من ارواح الاعداء حملاً ثقيلاً »

وقال آخر : «تعالوا نودعه لحف هذا الجبل ، فيكون له صدى الكهوف نديماً ، وخرير السواقي مؤنساً ، فترتاح عظامه في برية يكون فيها وقع اقدام الليالي خفيف الوطأة »

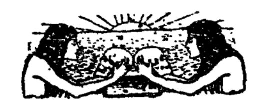
وقال آخر : « لا تغادروه ههنا ، ففي البرية وحشة مملة ووحدة قاسية، بل تعالوا ننقله الى جبانة القرية ، فيكون له من ارواح جدودنا رفاق تناجيه في سكينة الليل وتقص عليه اخبار حروبهم واحاديث امجادهم »

فتقدم الزعيم اذ ذاك الى وسط رجاله واسكتهم باشارة . ثم قال متنهداً : « لا تزعجوه بذكرى الحروب ، ولا تعيدوا عَلَى مسامع روحه الحائمة فوق رؤوسنا اخبار السيوف والرماح ، بل تعالوا نحمله بسكينة وهدوء الى مسقط رأسهِ . ففي ذلك الحي نفس ساهرة تترقب قدومهُ

— نفس صبية تنتظر رجوعه من بين الاسنة . فلنعيدنهُ اليها كيلا تحرم نظرةً من وجههِ وقبلة من جبينهِ »

حملوه علَى المناكب مطأطئي الرؤوس ، خاشعي العيون. ومشوا بسكينة محزنة يتبعهم فرسه الكئيب يجرُّ مقوده علَى الارض ويصهل من وقت الى آخر ، فتجيبهُ الكهوف بصداها ، كأن للكهوف افئدة تشعر مع البهيم بشدة الضيم والاسى

بين اضلع ذلك الوادي ، حيث اشعة القمر تسترق خطواتها سار موكب النصر وراءَ موكب الموت وقد مشى امامها طيف الحب ساحباً اجنحته المكسورة



جمال الموت

***

مرفوعة الى M. E. H.

دعوني انم، فقد سكرت نفسي بالمحبة .

دعوني ارقد، فقد شبعت روحي من الايام والليالي.

اشعلوا الشموع واوقدوا المباخر حول مضجعي. وانثروا اوراق الورد والنرجس عَلَى جسدي. وعفروا بالمسك المسحوق شعري واهرقوا الطيوب عَلَى قدمي ثم انظروا واقرأوا ما تخطه يد الموت عَلَى جبهتي .

خلوني غارقاً بين ذراعي الكرى، فقد تعبت اجفاني من هذه اليقظة .

اضربوا عَلَى القيثارات ودعوا رنات اوتارها الفضية تتمايل

في مسامعي .

انفخوا الشبابات والنايات وحيكوا من انغامها العذبة نقاباً حول قلبي المتسارع نحو الوقوف .

ترنموا بالاغاني الرهاوية وابسطوا من معانيها السحرية فراشاً لعواطفي ثم تأملوا وانظروا شعاع الامل في عينيّ .

امسحوا الدموع يا رفاقي ، ثم ارفعوا رؤوسكم مثلما ترفع الازهار تيجانهـا عند قدوم الفجر وانظروا عروسة الموت منتصبة كعمود النور بين مضجعي والفضـاء ...

امسكوا انفاسكم واصغوا هنيهة واسمعوا معي حفيف اجنحتها البيضاء .

تعالوا ودعوني يا بني أُمي ! قبلوا جبهتي بشفـاه مبتسمة . قبلوا شفتي باجفانكم وقبلوا اجفاني بشفاهكم .

قربوا الاطفال الى فراشي ودعوهم يلامسوا عنقي باصابعهم الوردية الناعمة . قربوا الشيوخ ليباركوا جبهتي

بايديهم الذابلة المتجمدة . دعوا بنات الحي يقتربن وينظرن خيال الله في عينيّ ويسمعن صدى نغمة الابدية متسارعة مع انفاسي .

(الانفصال)

ها قد بلغت قمة الجبل فسبحت روحي في فضاء الحرية والانعتاق .

قد صرت بعيداً بعيداً يا بني امي ، فانحجبت عن بصيرتي جبهات الطلول وراء الضباب ، وغمرت خلايا الاودية بحر السكون ، وامحت السبل والممرات باكف النسيان ، وتوارت المروج والغابات والعقبات وراء اشباح بيضاء كغيوم الربيع ، وصفراء كشعاع الشمس ، وحمراء كوشاح المساء .

قد تضعضعت اغاني امواج البحر واضمحلت ترنيمة السواقي في الحقول وسكنت الاصوات المتصاعدة من

جوانب الاجتماع ، فلم اعد اسمع سوى انشودة الخلود متآلفة مع اميال الروح .

﴿ الراهنة ﴾

اخلعوا نسيج الكتان عن جسدي وكفنوني باوراق الفل والزنبق .

انتشلوا بقاياي من تابوت العاج ومددوها عَلَى وسائد من زهر البرتقال والليمون . لا تندبوني يا بني امي ، بل انشدوا اغنية الشباب والغبطة . لا تذرفي الدموع يا ابنة الحقول ، بل ترنمي بموشحات ايام الحصاد والعصير .

لا تغمروا صدري بالتأوه والتنهيد ، بل ارسموا عليهِ باصابعكم رمز المحبة ووسم الفرح .

لا تزعجوا راحة الاثير بالتعزيم والتكهين ، بل دعوا قلوبكم تتهلل معي بتسبيحة البقاء والخلود .

لا تلبسوا السواد حزناً عليّ ، بل تردوا بالبياض

فرحاً معي .

ولا تتكلموا عن ذهابي بالغصات ، بل اغمضوا عيونكم تروني بينكم الآن وغداً و بعده .

مددوني عَلَى اغصان مورقة وارفعوني عَلَى الاكتاف وسيروا بي ببطءٍ الى البرية الخالية .

لا تحملوني الى الجبانة ، لان الزحام يزعج راحتي ، وقضقضة العظام والجماجم تسلب سكينة رقادي .

احملوني الى غابة السرو واحفروا لي قبراً في تلك البقعة حيث ينبت البنفسج بجوار الشقيق .

احفروا قبراً عميقاً كيلا تجرف السيول عظامي الى الوادي .

احفروا قبراً وسيعاً لكي تجيءُ اشباح الليل وتجلس بجانبي

اخلعوا هذه الاثواب ودلوني عارياً الى قلب الارض .

مددوني ببطء وهدو عَلَى صدر امي .

اغمروني بالتراب الناعم والقوا مع كل حفنة قبضة من بذور السوسان والياسمين والنسرين فتنبت عَلَى قبري ممتصة عناصر جسدي ، وتنمو ناشرة في الهواء رائحة قلبي ، وتتعالى رافعة في وجه الشمس سرائر راحتي ، وتتمايل مع النسيم مذكرة عابر الطريق بماضي امياني واحلامي ·

اتركوني الان يا بني امي — اتركوني وحدي وسيروا باقدام خرساء مثلما تسير السكينة في الاودية الخالية ·

دعوني وحدي وتفرقوا عني بهدوء مثلما تتفرق ازاهر اللوز والتفاح عندما تنثرها انفاس نيسان .

ارجعوا الى منازلكم فتجدوا هناك ما لم يستطع الموت ان يأخذه مني ومنكم ·

اتركوا هذا المكان ، فالذي تطلبونهُ صار بعيداً بعيداً عن هذا العالم ····

اغــاني

اغنيــة

***

في اعماق نفسي اغنية لا ترتضي الالفاظ ثوباً. اغنية
تقطن حبة قلبي، فلا تريد ان تسيل مع الحبر عَلَى الورق،
وتحيط بعواطفي كغلاف شفاف، فلن تنسكب عَلَى لساني
كالرضاب

كيف انتهدها وانا اخاف عليها من دقائق الاثير ؟
ولمن انشدها وقد تعودت سكنى بيت نفسي فاخشى عليها
من خشونة الاذان .

ان نظرت الى عيني رأيت خيال خيالها وان لمست
اطراف اصابعي شعرت باهتزازاتها

اعمال يدي تبينها مثلما تعكس البحيرة لمعان النجم

ودموعي تبيحها كما تبيح قطرات الندى سر زهرة الورد عندما تبعثرها الحرارة

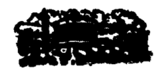
اغنية تنشرها السكينة ويطويها الضجيج وترددها الاحلام وتخفيها اليقظة

هي اغنية الحب ايها الناس ، فاي اسحق ينشدها بل اي داود يرتلها ؟

هي اعبق من انفاس زهرة الياسمين ، فاية حنجرة تستعبدها ؟ واصون من سر العذارى ، فاية اوتار تستبيحها ؟

من يجمع بين قواصف البحر وتغريدة البلبل ويقرن العواصف بتنهدة الطفل ؟

اي بشريّ ينشد اغنية الالهة ؟



اغنية الموج

***

انا والشاطئ عاشقان يقربهما الهوى ويفصلهما الهوآء.

اجيء من وراء الشفق الازرق كيما امزج فضة زبدي

بذهب رماله، وابرّد حرارة قلبه برضابي

عند الفجر اتلو شرع الغرام عَلَى مسامع حبيبي،

فيضمني الى صدره. وفي المساء اترنم بصلاة الشوق، فيقبلني

انا لجوج جزوع وحبيبي حليف صبر واليف تجلد

يأتي المدُّ فاعانق حبيبي، ويعقبهُ الجزر فاترامى

عَلَى اقدامهِ

كم رقصتُ حول بنات البحر عندما كنَّ يطلعنَ من

الاعماق ويجلسن عَلَى الصخور ليتفرجنَ عَلَى النجوم. وكم

سمعت المحب يشكو الغرام لذات حسنٍ فساعدتهُ عَلَى التأَوه والتنهد. وكم نادمت الصخور وهي جامدة وداعبتها ضاحكاً ولم تبتسم . وكم خلصت من اللجة اجساداً وجئت بها الى الاحياء . وكم سرقت من الاعماق دراً اهديتهُ الى ربات الجمــال

في سكينة الليل عندما تعانق المخلوقات طيف الكرى اسهر مترنماً تارةً ، متنهداً اخرى — ويحي لقداتلفني السهر ، ولكن انا محب وحقيقة الحب يقظة

هذه حياتي وذا ما عشت اصنعهُ



اغنية المطر

***

انا خيوط فضية تطرحني الالهة من الاعالي فتأخذني الطبيعة وتمق بي الاودية

انا لآلىء جميلة نثرت من تاج عشتروت فسرقتني ابنة الصباح ورصعت بي الحقول

انا ابكي فتبتسم الطلول ، واتضع فترتفع الازهار

الغيمة والحقل عاشقان وانا بينهما رسول مسعف انهمل فابرّد غليل هذا واشفي علة تلك

صوت الرعد واسياف البرق تبشر بقدومي وقوس القزح يعلن نهاية سفرتي — كذا الحياة الدنيا تبتدئ بين اقدام المادة الغضبى وتنتهي عَلَى اكف الموت الهادئ

اصعد من قلب البحيرة واسير عَلَى اجنحة الاثير، حتى اذا ما رأَيت روضة جميلة سقطتُ وقبلت ثغور ازاهرها وعانقت اغصانها

في السكينة اطرق باناملي اللطيفة بلور النوافذ فتؤلف تلك الطرقات نغمة تفقهها النفوس الحساسة

حرارة الهواء تولدني وانا اقتل حرارة الهواء — كذا المرأَة التي تتغلب عَلَى الرجل بقوة استمدتها من الرجل

انا تنهدة البحر. انا دمعة السماء. انا ابتسامة الحقل. كذا الحب — تنهدة من بحر العواطف ودمعة من سماء التفكر وابتسامة من حقل النفس



اغنية الجمال

***

انا دليل الحب ، انا خمرة النفس ، انا مأكل القلب

انا وردة افتح قلبي عند فتوَّة النهار فتأخذني الصبية وتقبلني وتضعني علَى صدرها

انا بيت السعادة، انا مصدر الفرح، انا مبدأ الراحة

انا ابتسامة لطيفة علَى شفتي غادة ، يراني الشاب فينسى اتعابه وتصير حياته مسرح احلام لذيذة

انا موحي الشعراء وهادي المصوّرين ومعلم الموسيقيين

انا نظرة في عين طفل تراها الام الحنونة فتسجد وتصلي وتمجد الله

تجليت لآدم بجسم حوآء فاستعبدته، وظهرت لسليمان في قدّ حبيبته فصيرتهُ حكيماً وشاعراً

ابتسمت لهيلانه فخربت تروادة . وتوجت كليوبترا فعم الانس في وادي النيل

انا كالدهر ابني اليوم واهدم غداً . انا الله احيي واميت

انا ارق من تنهدة زهرة البنفسج ، انـا اشد من العاصفة

انا حقيقة يا ايها الناس — انا حقيقة وهذا خير مـا تعلمونه



اغنية السعادة

***

الانسان حبيبي وانا حبيبته· اشتاق اليهِ ويهيم بي ، ولكن ، أواه ! لي في محبته شريكة تشقيني وتعذبه : ضرَّة طاغية تدعى المادة تتبعنا حيث نذهب وتفرقنا كالرقيب

اطلب حبيبي في البرّية تحت الاشجار وبقرب البحيرات فلا اجده ، لان المادة قد غرَّتهُ وذهبت بهِ الى المدينة الى الاجتماع والفساد والشقاء

اطلبهُ في معاهد المعرفة وفي هياكل الحكمة فلااجده لان المادة — تلك التي ترتدي التراب قد قادتهُ الى معاقل الانانية حيث يقطن الانهماك

اطلبهُ في حقل القناعة فلا اجده ، لان عدوَّتي قد قيدتهُ في مغائر الطمع والشراهة

اناديه عند الفجر عندما يبتسم المشرق، فلا يسمعني، لان كرى الاستمساك قد اثقل عينيهِ · اداعبهُ في المساء اذ تسود السكينة وتنام الازهار، فلا يحفل بي، لان انشغافه بما آتي الغد يشغل ضميره

حبيبي يحبني — يطلبني في اعماله وهو لن يجدني الا في اعمال الله · يروم وصالي في صرح المجد الذي بناه عَلَى جماجم الضعفاء وبين الذهب والفضة وانا لا اوافيه الا في بيت البساطة الذي بنتهُ الالهة عَلَى ضفة جدول العواطف· يريد تقبيلي امام الطغاة والقتلة وانا لا ادعه يلثم ثغري الا في الوحدة بين ازهار الطهر · يبتغي الحيلة وسيطاً بيننا ولا اطلب وسيطاً الا العمل المنزه — العمل الجميل

قد تعلم حبيبي الصراخ والضجيج من عدوتي المادة وانا سوف اعلمهُ ان يذرف دمعة استعطاف من عين نفسه ويتنهد تنهدة استكفاء · حبيبي لي وانا له

انشودة الزهرة

***

انا كلمة تقولها الطبيعة ثم تستردها وتخفيها طيّ قلبها ثم تقولها . انا نجم هبط من الخيمة الزرقاء على بساط اخضر

انا ابنة العناصر التي حبل بها الشتاء وتمخض بها الربيع ورباها الصيف ونوّمها الخريف

انا هدية المحبين . انا اكليل العرس . انا آخر عطية من حي الى ميت

عند الصباح اتعاون والنسيم عَلَى اعلان مجيء النور وفي المساء اشترك مع الطيور بوداعه

اتمايل في السهول فازينها واتنفس في الهوآء فاعطره .

اضم الكرى فترمقني عيون الليل العديدة واطلب اليقظة لاحدق بعين النهار الوحيدة

انا اشرب خمرة الندى واسمع اغاني الشحارير وارقص عَلَى تصفيق الاعشاب. انا انظر الى العلو دائمًا كي ارى النور ولا ارى خيالي وهذه حكمة لم يتعلمها الانسان بعد



نشيد الانسان

***

« وكنتم امواتًا فاحيا كم ثم يميتكم
ثم يحييكم ثم اليه ترجعون »
(القرآن الشريف)

انا كنت منذ الازل ، وها انا ذا ، وسأكون الى آخر الدهر ، وليس لكياني انقضاء.

سبحت في فضاء اللانهاية وطرت في عالم الخيال واقتربت من دائرة النور الاعلى وها انا الان سجين المادة .

سمعت تعاليم كنفوشيوس واصغيت لحكمة برهما وجلست بقرب بوذا تحت شجرة المعرفة وها انا الان اغالب الجهل والجحود . كنت على الطور اذ تجلى «يهوه» لموسى ، وفي عبر الاردن فرأيت معجزات الناصري ، وفي المدينة

فسمعت اقوال رسول العرب وها انا الان اسير الحيرة.
شاهدت قوّات بابل ، ومجد مصر ، وعظمة اليونان ، ولم
ازل ارى الضعف والذل والصغر بادية في جميع تلك الاعمال.
جالست سحرة عين دور ، وكهنة اشور ، وانبياء فلسطين ،
وما برحت انشد الحقيقة . حفظت الحكمة التي نزلت على
الهند واستظهرت الشعر المنبثق من قلوب سكان جزيرة
العرب ووعيت الموسيقى المتجسمة من عواطف اهل المغرب
وما زلت اعمى لا ارى ، واصم لا اسمع . احتملت قساوة
الفاتحين الطامعين وقاسيت ظلم الحكام المستبدين وعبودية
الاقوياء الباغين وما برحت ذا قوة اكافح بها الايام.

شاهدت وسمعت كل ذلك وانا طفل ولسوف اشاهد واسمع
اعمال الشبيبة ومآتيها ولسوف اشيخ وابلغ الكمال وارجع الى الله.

انا كنت منذ الازل ، وها انا ذا ، وساكون الى آخر
الدهر ، وليس لكياني انقضاء .

صوت الشاعر

صوت الشاعر

١

القوة تزرع في اعماق قلبي وانا احصد واجمع السنابل واعطيها اغماراً للجائعين . الروح يحيي هذه الجفنة الصغيرة وانا اعصر عناقيدها واسقيها للظامئين . السماء تملأ هذا السراج زيتاً وانا انيره واضعه في نافذة بيتي من اجل العابرين في ظلمة الليل . انا فاعل هذه الاشياء ، لانني احيا بها واذا منعتني الايام وغلت يديَّ الليالي طلبت الموت فالموت اخلق بنبيٍّ منبوذ في امته وشاعر غريب بين اهله

البشر يضجون كالعاصفة وانا اتنهد بسكينة ، لاني وجدت عنف العاصفة يزول وتبتلعه لجة الدهر اما التنهدة فتبقى ببقاء الله

البشر يلتصقون بالمادة الباردة كالثلج وانا اطلب شعلة المحبة لاضمها الى صدري فتأكل ضلوعي وتبري احشائي، لاني الفيت المادة تميت الانسان بلا ألم، والمحبة تحييه بالاوجاع

البشر ينقسمون الى طوائف وعشائر و ينتمون الى بلاد واصقاع . وانا ارى ذاتي غريباً في بلد واحد، وخارجاً عن امة واحدة. فالارض كلها وطني والعائلة البشرية عشيرتي، لاني وجدت الانسان ضعيفاً ومن الصغر ان ينقسم عَلَى ذاتهِ، والارض ضيقة ومن الجهل ان تتجزأ الى ممالك وامارات

البشر يتكاتفون عَلَى هدم هياكل الروح و يتعاونون عَلَى بناء معاهد الجسد وانا وحدي واقف في موقف الرثاء، عَلَى انني اصغي، فاسمع من داخلي صوت الامل قائلاً : « مثلما تحيي المحبة القلب البشري بالاوجاع كذا تعلمهُ الغباوة سبل المعرفة. فالاوجاع والغباوة تؤول الى لذة عظيمة ومعرفة كاملة، لان الحكمة السرمدية لم تخلق شيئاً باطلاً تحت الشمس »



احنُّ الى بلادي لجمالها واحب سكان بلادي لتعاستهم، ولكن اذا ما هبَّ قومي مدفوعين بما يدعونهُ وطنية وزحفوا عَلَى وطن قريبي وسلبوا امواله وقتلوا رجاله ويتموا اطفاله ورملوا نساءه وسقوا ارضه دماء بنيه واشبعوا ضواريه لحوم فتيانه كرهتُ اذ ذاك بلادي وسكان بلادي

اتشببُ بذكر مسقط رأسي واشتاق الى بيتٍ ربيت فيهِ، ولكن اذا مر عابر طريق وطلب مأوى في ذلك البيت وقوتاً من سكانه ومُنع مطروداً استبدلت تشببي بالرثاء وشوقي بالسلوّ وقلت بذاتي: ان البيت الذي يضن بالخبز عَلَى محتاجه، وبالفراش عَلَى طالبه لهو احق البيوت بالهدم والخراب

احب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي · واحب

بلادي بقسم من محبتي للارض وطني . واحب الارض بكليتي لانها مرتع الانسانية روح الالوهية عَلَى الارض . الانسانية المقدسة روح الالوهية عَلَى الارض. تلك الانسانية الواقفة بين الخرائب، الساترة قامتها العارية بالاطمار البالية، الذارفة الدموع السخية عَلَى وجنتيهـا الذابلتين ، المنادية ابناءَها بصوت يملأ الاثير أنةً وعويلاً وابناؤُها مشغولون عن ندائها باغاني العصبية ، منصرفون عن دموعها بصقل السيوف . تلك الانسانية الجالسة وحدها تستغيث بالقوم وهم لا يسمعون، وان سمعها فرد واقترب منها ومسح دموعها وعزّاها في شدائدها قال القوم ، اتركوه فالدموع لا تؤثر بغير الضعيف

الانسانية روح الالوهية عَلَى الارض . تلك الالوهية السائرة بين الامم المتكلمة بالمحبة المشيرة الى سبل الحياة والناس يضحكون مستهزئين باقوالها وتعاليمها . تلك التي

سمعها بالامس الناصري فصلبوه ، وسقراط فسمموه ، والتي سمعها اليوم القائلون بالناصري وسقراط وجاهروا باسمها امام الناس والناس لا يقدرون عَلَى قتلهم ، لكنهم يسخرون بهم قائلين : السخرية اقسى من القتل وامرّ

ولم تقوَ اورشليم عَلَى قتل الناصريّ ، فهو حيٌّ الى الابد . ولا آثينا عَلَى اعدام سقراط ، فهو حيٌّ الى الابد . ولن تقوى السخرية عَلَى سامعي الانسانية وتابعي اقدام الالوهية ، فسيحيون الى الابد — الى الابد





انت اخي وكلانا ابن روح واحد قدوس كليّ . وانت مماثلي لاننا مجينا جسدين جبلا من طينة واحدة . وانت رفيقي عَلَى طريق الحياة ومسعفي في ادراك كنه الحقيقة

المستترة وراء الغيوم . انت انسان وقد احببتك يا اخي

قل عني ما شئت، فالغد يقضي عليك ويكون قولك قرينة ظاهرة امام حكمه ، وبينة صائبة لدى عدله

خذ مني ما شئت ، فلست بسالب غير مال لك الحق بقسم منه وعقار استأثرت به لمطامعي، فانت خليق ببعضه ان كان يرضيك بعضه

افعل بي ما تشاء ، فلست بقادر عَلَى مس حقيقتي . اهرق دمي واحرق جسدي فلا تؤلم نفسي ولن تميتها . كبل يديَّ ورجليَّ بالقيود وانزل بي الى ظلمة السجون ، فانك لا تقوى عَلى اسر فكرتي، لانها حرّة كالنسيم السائر في فضاء لا حد له ولا مدى

انت اخي وانا احبك —

احبك ساجداً في جامعك وراكعاً في هيكلك ومصلياً في كنيستك، فانت وانا ابنا دين واحد هو الروح،

وزعماء فروع هذا الدين اصابع ملتصقة في يد الالوهية المشيرة الى كمال النفس

احبك لمحبة حقيقتك المنبثقة من العقل العام . تلك الحقيقة التي لا اراها الآن لعماوتي ، لكني اعتبرها مقدسة لانها من اعمال النفس . تلك الحقيقة التي ستلتقي بحقيقتي في العالم الآتي فتمتزجان كانفاس الازهار وتصيران حقيقة واحدة كلية خالدة بخلود الحب والجمال

احبك لاني رايتك ضعيفاً امام الاقوياء القساة وفقيراً محتاجاً امام صروح الاغنياء الطامعين. لذلك بكيت من اجلك ومن وراء دموعي رأيتك بين ذراعي العدل وهو يبتسم لك ويستهزىء بمضطهديك

انت اخي وانا احبك

٤

انت اخي وانا احبك. لماذا اذن تخاصمني
لماذا تأتي بلادي وتحاول اخضاعي ارضاءً لأئمة
يطلبون المجد بقولك والمسرّة بمتاعبك؟ لماذا تترك رفيقتك
وصغارك متبعاً الموت الى ارض بعيدة من اجل قواد يبتغون
ابتياع المعالي بدمائك والشرف الرفيع باحزان والدتك؟
ولكن أمن الشرف الرفيع ان يصرع الانسان اخاه؟
لنرفعنّ اذن تمثالاً لقايين مترنمين بمديح حانان

يقولون يا اخي ان «المحافظة عَلَى الذات» قاعدة طبيعية
اولية، ولكنني رأيت الطامعين بالتميز يحببون اليك بذل
الذات توصلاً الى امتلاك رقاب اخوانك. ويقولون ان
«حب البقاء» يوجب الاعتداء عَلَى حقوق الغير، وانا اقول:
ان المحافظة عَلَى حقوق الغير هي اشرف واجمل مآتي.

الانسان واقول ايضاً : ان كان بقائي يوجب فناء سوايـ
فالموت اذن الذ لديّ واحب ، وان لم اجد من يقتلني شريفاً ومحباً منزهاً تمتعت بتقديم ذاتي بيدي الى الابدية قبل اوان الابدية

الانانية يا اخي اوجدت التنافس الاعمى ، والتنافس ولد العصبية ، والعصبية وضعت السلطة وكانت هذه داعياً للمنازعات والاستعباد . النفس تقول بسلطة الحكمة والعدالة عَلَى الجهالة والظلم ، لكنها تنكر تلك السلطة التي تستل من المعادن قواضب و بواتر لتعميم الجهالة والمظالم . تلك السلطة التي هدمت بابل وقوضت اركان اورشليم ودكت مباني رومية . تلك التي اوجدت سفاكي الدمـاء والقتلة الذين ينعتهم الناس بالعظماء والكتاب تجل اسماءهم والكتب لا تأبى حفظ معاركهم في بطونها كما ان الارض لم تأبَ حملهم عَلَى ظهرها حينما كانوا يخضبون محياها بالدماء

الزكية ... فما اغراك يا اخي بما يغرك والهجك بمن يضرك٠
السلطة الحقيقية هي الحكمة المحافظة عَلَى الشريعة الطبيعية العامة العادلة٠ فاين عدالة السلطة اذا قتلت القاتل وسجنت الناهب ثم زحفت بذاتها الى بلاد مجاورة وقتلت الالوف ونهبت الربوات؟ ما قول العصبيين بقتلة يعاقبون من يقتل ولصوص تجازي من يسلب؟

انت اخي وانا احبك والمحبة هي العدل باسمى ظواهره، فان لم اكن عادلاً بمحبتي لك في كل المواطن كنت مراوغاً ساتراً بشاعة الانانية بثوب المحبة البهي



خاتمـــة

***

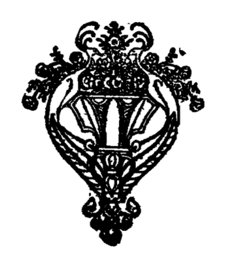
لي من نفسي صديق يعزيني اذا ما اشتدت خطوب الايام ويوءاسيني عند ما تلمّ مصائب الحياة وَمن لم يكن صديقاً لنفسه كان عدوّ الناس ، ومن لا يَرَ موءنساً من ذاته مات قانطاً ، لأن الحياة تنبثق من داخل الانسان ولن تجيء مما يحيط به

جئت لاقول كلمة وسأقولها واذا ارجعني الموت قبل ان الفظها يقولها الغد . فالغد لا يترك سرّاً مكنوناً في كتاب اللانهاية

جئت لاحيا بمجد المحبة ونور الجمال وهاءنذا حيٌّ والناس لا يستطيعون ابعادي عن حياتي . إن سملوا عينيّ

تمتعت بالاصغاء لاغاني المحبة والحان الجمال . وان طمسوا اذنيَّ تلذذت بملامسة اثير ممزوج بانفاس المحبين واريج الجمال . وان حجبوني عن الهواء عشت ونفسي . فالنفس ابنة الحب والجمال

جئت لاكون للكل وبالكل والذي افعله اليوم في وحدتي يعلنهُ المستقبل امام الناس . والذي اقوله الان بلسان واحد يقوله الآتي بالسنةٍ عديدة




Bibliotheca Alexandrina
04200087